د. يحيى الجمل

عبد الناصر والسد العالى والقومية العربية



دار المستقبل العربى . القاهرة

عبد الناصر
والسد العالى
والقومية العربية

دكتور
يحيى الجمل

الناشر
المستقبل العربى للنشر والتوزيع

إهداء

الى أولئك الذين مازالوا يتمسكون

بالأمل البعيد

أمل الوحـــدة

من أجلهم كتبت هذه المقالات

واليهم أهديها

المؤلف

مقدمة

هذه مجموعة من المقالات نشر بعضها داخل مصر ونشر البعض الاخر خارج مصر فى عدد من الجرائد والمجلات العربية ، وهذه المقالات يربط بينها جميعا فكر واحد يوشك أن يجعل منها حبات فى عقد . أما هذا الفكر الواحد الذى تعكسه المقالات فانه يقوم على تأكيد الحقائق الآتية :

حقيقة الانتماء العربى لمصر .

وحقيقة أنه بغير الحرية فأن كل بنيان سياسى معرض للانقضاض والانهيار .

وحقيقة أن الحرية لها وجهان لا ينفصلان وجه سياسى ووجه اقتصادى .

حول هذه المحاور تدورهذهالمقالات تقترب منها أحيانا اقترابا شديدا وتعالجها أحيانا اخرى على نحو غير مباشر ، ولكنها جميعا تقوم على هذه الاعمدة وتستند اليها وتعبر عنها .

وقد أحسن بعض الاصدقاء الظن بهذه المقالات وحرضونى على جمعها فى دفة كتاب واحد حتى لا تضيع أو تتوه ، وترددت طويلا الى أن جاءنى الصديق القديم (عبد العزيز سالم) وله فى نفسى موقع خاص منذ أيام الشباب الباكر ولم يتركنى الا وقد جمعنا تلك المقالات فى ملف خاص والا وقد دفعنى دفعا الى أن أضعها فى يد من سيقومون بطبعها واخراجها كتابا يسعى الى الناس .

وقد عاصرت تلك المقالات فترة من أشد الفترات قلقا فى حياة الوطن العربى وأشدها توترا فقد بدأت مع النصف الثانى من عام ١٩٧٥ حين كانت موجة المد التى صاحبت وأعقبت حرب اكتوبر قد تركت مكانها لجزر شديد ، وبدأت حملة شرسة لتكريس الاقليمية فى أجزاء الوطن العربى وفى (مصر) بوجه خاص ، وانهالت المعاول من كل ناحية تريد أن تقطع الاواصر بين مصر وأمتها العربية ، ولم

تكن تلك المعاول سانجة دائما فقد انتشحت احيانا بمسوح ظاهرها العلمانية وباطنها التجديف الشديد ، وكان لا بد من التصدى لهـذه الحملة الشرسة الضالة التى كانت وما زالت تستهدف القضـــاء على كل أمل لدى المناضلين الشرفاء من ابناء الامة العربية فى أن يعيدوا أمتهم للسير على طريق بنائها ووحدتها حتى وأن كان طريقا شاقـــا وطويلا .

والمقال الاول من هذه المجموعة كما يأتى فى هذا الكتاب ليس هو المقال الاول فى تاريخ النشر ـــ ذلك اننى لم التزم فى ترتيب المقالات بتواريخ نشرها وانما رأيت أن ارتبها ترتيبا موضوعيا .

وهذا المقال الاول (عبد الناصر والسد العالى والقومية العربية) والذى نشر فى جريدة السفير اللبنانية بمناسبة مرور عشر سنوات على رحيل جمال عبد الناصر يوشك أن يجمع المحاور الثلاث التى تدور عليها سائر مقالات الكتاب ومن ثم كان من حقه أن يأتى فى صـــدر هذا الكتاب وأن يكون عنوانه هو عنوان الكتاب نفســـه .

أما المقال الثانى (الوجود العربى فى مصر) والذى نشر بمجـــلة (المستقبل العربى) التى يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت فقد جاء محاولة للرد على أولئك الذين هاجموا عروبة مصر وحاولوا قدر طاقتهم التشكيك فى أمرها . وقد حرصت فى ذلك المقال على أن أبين الدوافع التى تدفع هؤلاء الى تلك المحاولة الشريرة الخبيثة وحاولت أن أكشف بهدوء مدى ما ذهبوا اليه من ضلال بعيد.

وتمضى المقالات التالية (حقيقة الانتماء القومى ..) و (النظرة القومية والمصير العربى) و (الوطن العربى والعالم الثالث) .. لتؤكد هذه المعانى ولترد على دعاة النظرة الاقليمية الضيقة وغير العلمية .

ويأتى فى نهاية القسم الاول من مجموعة هذه المقالات ـــ وهو القسم الذى يتناول الفكر القومى ـــ مقال بعنوان (تيار يبحث عن منبره) ولهذا المقال قصة ، ذلك انه نشر فى (الاهرام) فى الفتـــرة التى كان يجرى فيها الحديث عن انشاء منابر سياسية داخل الاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر تعبر عن الاتجاهات والتيارات السياسية المختلفة ، وجاء هذا المقال تعبيرا عن وجهة نظر التيار القومى وموقفه من قضية المنابر التى كانت مطروحة آنذاك .

وبهذا المقال (تيار يبحث عن منبره) ينتهى القسم الاول من مجموعة هذه المقالات التى تدور حول الفكر القومى .

وتبدأ بعد ذلك بضعة مقالات سياسية تعالج قضايا مصرية أساسا وان كانت من ذلك النوع من القضايا الذى تصادفه فى سائر احزاء الوطن العربى .

وينتهى الكتاب بمقالات ثلاث لها قصة طريفة : أول هذه المقالات مقال يدعو الى ان الخلاف فى الرأى يجب أن لا يفسد الود بين المختلفين فى الرأى وقد نشر هذا المقال فى الاهرام فى أعقاب قيام المنابر وانضمامى الى المنبر الذى اتخذ له اسم (التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى) ويبدو ان ذلك المقال لم يجز رضا الاستاذ الدكتور عبد المنم النمر الذى أصبح فيما بعد وزيرا للاوقاف ــ فنشر مقالا فى الاهرام يهاجم (التجمع) ويهاجمنى شخصيا هجوما عنيفا .

وتفضل الاهرام فسمح لى بأن أرد على الشيخ النمر بمقال جعلت له عنوانا (سامحك الله ياشيخنا النمر) ولكن الاهرام آثر أن يجعل عنوان المقال (تعقيب على مقال الدكتور النمر) ولما كان مقال الدكتور النمر يمثل حلقة لازمة من حلقات هذه المقالات : السابقة عليها ثم التالية لها فقد نشرته بينهما .

وكان تعقيبى على الدكتور النمر هو آخر مقال سمح لى بنشره فى الاهرام ذلك انه بعد قيام (التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى) صارحنى المرحوم يوسف السباعى رئيس تحرير الاهرام آنذاك بأنه على غير استعداد أن ينشر لى شيئا وأن حقى فى الرد على الدكتور النمر سيكون آخر مقال ينشر لى فى الاهرام .

.. وقد كان ..

وقد حرصت على أن يكون ذلك المقال هو ايضا آخر مقال فى هذا الكتاب .

هذه هى قصة تلك المقالات التى احسن بعض الزملاء الظن بها وبى وحرضونى على أن أجمعها فى كتاب قد يكون فيه بعض النفع بقدر ما قد يكون فيه من صواب .

والله ولى التوفيق ...

عبد الناصر والسد العالى والقومية العربية

قد يبدو هـذا العنوان غريبا لأول وهله •

وقد يظن البعض انى أقصد به الى الرمز •

ولكن الحقيقة أن هذه الأقانيم الثلاث ـ عبد النـاصر والسـد العالى والقومية العربية ـ ترتبط ببعضها ارتباطا بلغ من الوثاقة الى المدى الذى يقال معه ان الصلة بينها وبين بعضـها توشك أن تكون صلة عضـوية •

وما من أحـد يجادل فى أن الوجـه العربى نعبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو لم يكن واضحا كل الوضوح فى الأشهر الأولى للثورة •

حقا اختمرت الفكرة لدى عبد الناصر ورفاقه على ربى فلسـطين وبعد عودتهم منهـا ولم يكن من الممكن والأمر كذلك أن يختفى البعد العربى تماما من فكر قائد الثورة •

ولكن عبد الناصر عندما أقام تنظيم الضباط الأحرار وعندما قاد حركة الجيش ليلة ٢٣ يوليو لم يكن من قبيل الثوار « الايديولوجين » الذين يتحركون وفقـا لفلسفة معينة واضحة المعالم •

كان عبد الناصر شابا وطنيا رافضا للاستعمار ورافضا للظلم ، وكان هذا الرفض هو المحرك الأساسى له • وعندما قاد حركته والتفت حولها الجماهير واحتضنتها وبلورت أهدافها انقلبت تلك الحركة الى ثورة شـعبية •

ومن الحق أن يقال ان عبد النـاصر ظل خـلال الفتـرة الأولى للثورة ـ والتي امتدت الى قرابة العامين ونصف ـ يبحث عن هويةتلك الثورة ، وظلت الثورة تبحث عن هويتها •

ولم يكن بحثا أكاديميا ولا بحثا مجـردا وانمـا كان بحثاً أملته الظروف والأحداث •

والميزة الكبرى لعبد النـاصر أنه كان يعرف كيف يتعـامل مع الأحداث : كيف يفيد منها وكيف يتأثر بها وكيف يؤثر فيها •

وكان طبيعيا ان تستغرق مشـاكل مصر الداخلية ـ وهى ضخمة ومتعددة ومتشابكة ـ جهد الثورة كله وجهد قائد الثورة كله ، كذلك كان طبيعيا أن تتحسس الثورة أقدامها لكى تؤمن نفسها ولو بعض الأمان •

وكان لابد من عامين وبعض العام لكى يأخذ ذلك كله مجراه ولكى تعرف الثورة أين هى ولمن هى وما ماهيتها ؟

هل هى ثورة اقليمية مصرية بحتة أم هى ثورة عربية : هى نواة الثورة العربية أو هل هى الثورة العربية النواة •

وكانت هناك أرهاصات كثيرة تدل على التوجه العـربى ولكنهـا لم تكن حاسمة بالقدر الكافى : فى أحاديث عبد الناصر وفى خطبه كانت كلمـة العرب والعروبة والأمة العربيـة ترد أحيانا اذا كانت هنـاك مناسـبة لها ، وخصصت اذاعة مصر موجة أساسية من موجاتها لاذاعة « صوت العرب » وافتتحه عبد الناصر بكلمة منه ، وفى العيد الأول لصوت العرب ـ يوليو ٥٤ ـ ألقى كلمة أخرى لعلها أول مرة ينضج فيها البعد العربى الى حد ما •

وبدأت معركة الأحلاف •

وخاض عبد الناصر ضدها حربا عارمة •

وكان أمرا طبيعيا أن يولد فى مواجهة الأحلاف شىء جديد فى فكر عبد الناصر وفى حركته وفى توجهاته ، شىء ليس بالجديد فى الواقع ولكن جديد عليـــه هو : اسمه الوطن العربى •

* * *

وكان بناء السد العالى فى جنوب مصر حلما من أحلام الثورة •

وكان توجه عبـــد الناصر نحـــو الغرب ونحو البنك الدولى لكى يساعدوه فى اقامة السد العالى ذلك الذى تعلق عليه الثورة كثيرا من آمالها فى التنمية والتقدم •

ولكن الغرب كان قد أدرك ان عبد الناصر ليس مجرد ضابط قاد انقلابا عسكريا يمكن أن يحتوى •

انه ليس مثل « كولونيلات » أمريكا اللاتينية ولا يمكن التعامل معه على نفس النحو •

انه ظاهرة جديدة وفريدة •

وبدأ حوار طويل حول بنـــاء السد العالى وكيفية تمويله وشروط ذلك التمويل •

وأحس عبد الناصر بوعيه السياسى وبطريقته فى تحليل الأمور أن شركا خطيرا يراد أن ينصب له ولثورته ولمصر •

وانتهى الأمر مع الغرب بأن سحبت أمريكا وتبعتها بريطانيا وتبعهما البنك الدولى عروضهم لتمويل انشاء السد العالى •

ورغم ضخامة الصدمة الا أن عبد الناصر لم يستسلم ولم يسقط ، عكس ذلك تماما هو الذى حدث •

وجه عبد النـــاصر الى الاستعمار الغربى ضربة زلزلته زلـــزالا حقيقيـــا •

كان لا بد من بنـــاء الســـد العالى •

وكان لا بد من الاعتماد على الذات •

كيف تعامل عبد الناصر مع الحدث وكيف تأثر به وكيف أثر فيه •

هنـــا وفى مثل هـــذه المواقف تتحدد ثورية الرجال وعنـــاصرهم وانتماءاتهم •

والشىء الملفت للنظر حقا أن هذا الموقف ـــ سحب تمويل السد العالى من قبل الغرب ، وتفكير عبدالناصر فى توجيه ضربةمقابلة للغرب، وضرورة بنـــاء السد ـــ هـــذا الموقف كان هو النقلة الكبرى فى فكر عبد الناصر وانضاجه عربيا •

كان قرار عبد الناصر فى مواجهة تصرف الاستعمار الغربى نحوه هو تأميم الشركة الدولية لقناة السويس •

وقد أصبحت تلك الأحداث كلها ملكا للتاريخ ولا تعنينا هنا من زاوية كونها أحداثا •

ولكن الذى يعنينى هنـــا هو أن أوضـــح ـــ كدارس ـــ أن هـــذا الموقف وما سبقه وما لحقه من تفاعلات كان هو نقطة التحول الكبرى فى فكر عبد الناصر وفى ثورته •

وعندما وقف عبد الناصر فى الاسكندرية مساء يوم ٢٥ يوليو ١٩٥٥

ليلقى خطابه فى العيد الثالث للثورة ، ذلك الخطاب الذى أعلن فى نهايته قراره بتأميم قناة السويس كان هـذا الخطاب بذاته هو نقطة الفصل بين مرحلتين فى فكر عبد الناصر وفى اتجاه الثورة :

مرحلة الالتفات الى الداخل والبحث عن الماهية والتردد بين الاقليمية والقومية ، ومرحلة أخرى هى مرحلة الوعى بالانتماء العربى وبالقومية العربية والوطن العربى وبوحدة المشاكل ووحدة الأهداف ، ووحدة الأنصار ووحدة الأعداء .

كان عبد الناصر يلقى خطابا فى عيد الثورة المصرية ، وكان يعتزم أن يعلن تأميم قناة السويس فى نهاية ذلك الخطاب وكان الحديث يدور حول تصرفات الغرب وسحب تمويل السد العالى وضرورة الرد على هـذا التصرف .

فهل كان خطاب عبد الناصر هو ذلك وحسب ؟

لا بل كان ذلك وأكثر منه .

كان ذلك وكان نهاية مرحلة وبداية مرحلة فى فكر قائد الثورة وفى وعى الثورة بذاتها .

ومنـذ أن قامت الثورة وحتى تاريخ القاء ذلك الخطاب لم يتحدث عبد الناصر قط بمثل هـذا الوضوح عن فهمه لقضايا الوطن العربى ولمفهوم القومية العربية وعن انتمائه وانتماء ثورته وانتماء مصر وشعبها للأمة العربية .

ومنذ ذلك التاريخ تحدد مسار ثورة عبد الناصر وكونها الثـورة العربية الأم أو الثورة العربية النواة فى النصف الثـانى من القرن العشرين .

وأحسب ان الأمر يطول اذا أردت أن أنقل هنا بعض عبارات ذلك الخطاب ٠

ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ٠

يقول عبـد الناصر فى ذلك الخطـاب بتاريخ ٢٥ يوليـو ١٩٥٥ بالاسـكندرية :

« حاول الاستعمار بكل وسـيلة من الوسائل أن يضعف قوميتنا وأن يضعف عروبتنـا وأن يفرق بيننـا فخلق صـنيعة الاسـتعمار « اسرائيل » ٠

« ان القومية العربية تتقدم وستنتصر ٠ انها تسـير الى الأمام وهى تعرف طريقها وتعرف سبيلها » ٠

« وبدأوا يقاومون القومية العربية فى الجزائر ٠ كل هذه القوى تقاتل عشرة ملايين جزائرى ولكن القومية العربية فى الجزائر استطاعت أن تهزم حلفـاء فرنسا ٠٠٠ وهذا معنـاه اشتعال القومية العربيـة وشعورها بكيانها وحقها فى الحيـاة ٠ هـذه المعارك التى تخوضها — معركة الأردن والجزائر ومقاومة الأحلاف كلها معاركنا ٠٠٠ » ٠

« انهم يعرفون أن لنـا قومية تجمعنا من المحيط الأطلسى حتى الخليج العربى هـذه القوة يجب أن يعمل لهـا حساب لأول مرة فى التـاريخ ٠ اذن يقضون على فلسطين ويحل اليهود محل أهلهـا ٠٠ والصهيونيون يعلنون أن وطنهم المقدس يمتد من النيل الى الفرات٠٠ » ٠

ويختم عبد الناصر ذلك الخطاب التاريخى قبل أن يعلن قـرار التأميم بقوله :

« ولهذا فاننا اليوم أيهـا المواطنون حينما نبنى السـد العالى

فانما نبنى أيضا سـد العزة والحرية والكرامة ونقضى على سـدود الذل والهوان » •

وكلنا يعرف كيف سارت الأحداث بعد ذلك •

وكيف حدث العدوان •

وكيف تحرك الشعب العربى كله من المحيط الى الخليج لنصرة الشعب العربى فى مصر حتى اندحر العدوان وانسحبت فلوله •

وولد عبد الناصر زعيما عربيا لا ينازعه فى زعامته للشعب العربى كله أحـد •

ومنذ ذلك التاريخ والى أن اختاره الله الى جواره وحتى بعد وفاته والعالم كله ينظر اليه هذه النظرة ويقيسه بذلك المعيار •

وكان عبد الناصر ينضج عربيا يوما بعد يوم • يتضح ذلك فى أحاديثه وفى خطاباته وفى مواقفه جميعا •

ومرت الأيام •

ووقف عبد الناصر فى التاسع من يناير عام ١٩٦٠ فى أسوان عندما بدىء فعلا فى بنـاء جسم السد العالى ليقول :

« أيهـا الاخوة هـذا هو السـد العالى الذى دارت من حوله المعارك وحارب من أجله الأبطال هـذا هو السد العالى الذى شـهد كل هذا الكفـاح واستحق كل هـذا الكفـاح لا بسبب قيمته الذاتية فحسب بل لأنه أصبح كرمز لتصميم الأمة العربية كلها على أن تسـير فى بنـاء وطنها الكبير المتحرر •••• قيمته الكبرى أيهـا الاخوة تصميم بلدنا •••• اننا نستطيع الصمود للعواصف وقـد صـمدنا للعواصف وعشنا فيهـا ثم عشنا بعدها ، صمدنا للعدوان وعشـنا فيه ثم عشنا بعـده » •

« هذه أيها الاخوة هى القيمة الكبرى للسد العالى بالنسبة للأمة العربية كلها ••• ان الشعوب تقيم نصبها التذكارية تخليدا لانتصاراتها الكبرى واننا لنعتبر ان السد العالى هو النصب التذكارى لمعركة العرب وانطلاق القومية العربية لتحقيق دورها التاريخى ، دورها الانسانى ، انه تذكار أيها الاخوة يتناسب فى ضخامته ويتناسب فى فوائده ويتناسب فى آثاره مع عظمة الأمة التى أنشأته • »

« انه تذكار حى خلاق وليس مجرد حجر أصم تلقى الزهور من حوله •• انه حياة جديدة متجددة •• انه قوة دافعة للتطور ، انه عون وذخر وسند فى معارك طويلة على طريق طويل من أجل تحقيق الأهداف العربية الكبرى • »

أليس من حقى اذن أن أربط بين عبد الناصر وبين السد العالى والقومية العربية وأن أقول ان الارتباط بين الاقانيم الثلاث هو ارتباط عضوى •

وما أكثر السدود التى اقيمت •

وما أكثر السدود التى انهارت •

وما أكثر المعارك التى واجهناها •

وما أكثر المعارك التى تنتظرنا •

وسيظل عبد الناصر وسيظل سده العالى وستظل القومية العربية ـــ ستظل هذه الأقانيم الثلاث ألوية خفاقة يرفعها كل المناضلين من أجل أهداف الأمة العربية وحقها فى الحياة •

نشر هذا المقال فى مجلة السفير اللبنانية فى عدد خاص بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاة جمال عبد الناصر .

الوجود العربي في مصر

لعل التساؤل حول عروبة قطر من أقطار العروبة لم يثر بالالحاح الذى اثير به ذلك التساؤل حول عروبة مصر •

أثير ذلك التساؤل خارج مصر وأثير داخلها •

وأثاره كتاب عرب وأثاره كتاب من غير العرب •

وقد بدا للبعض فى الستينات من هـذا القرن ان ذلك التساؤل قد حسم نهائيا لصالح عروبة مصر ، ولكن يبدو ان ذلك الحسم لم يكن نهائيا وعاد التساؤل حول عروبة مصر يطفو الى السطح من جديد •

ونشبت معركة حامية بين أولئك الذين يقولون بعروبة مصر وأولئك الذين ينكرون عروبتها •

ومازال الحوار دائرا وما أظنه سينتهى فى وقت قريب •

والسؤال الذى أريد أن أعرض له هنا هو على التحديد : لماذا مصر بالذات ــ دون سائر أقطار العروبة التى يثار حولها ذلك التساؤل وبهذا القدر من الالحاح ؟ ولماذا لا يوشك الحديث أن ينتهى حتى يبدأ من جديد ؟

هل حقيقة ان عروبة مصر تثير كل هـذه الشكوك ، وهل أمر هـذه العروبة غير واضح الى هذا المدى الذى يعكس كل هـذا الجـدل الذى يصل أحيانا الى حد الصراخ بين المتجادلين ؟

فى اعتقادى ان عروبة مصر لا يمكن لدى باحث منصف ان تثير كل هـذا الجدل •

فاذا كان ذلك فلم الجدل اذن ؟

وما أســبابه ودلالاته وما أهدافه ، وغاياته ؟

الحقيقة الكامنة وراء الالحاح فى التساؤل حول عروبة مصر تكمن أساسا فى أهمية مصر ووزنها بالنسبة للوطن العربى •
والطرفان المتحاوران يدركان هــذه الأهمية وذلك الوزن ومن ثم جاء ذلك الالحاح غير العادى •

كلا الطرفين يدرك ان هــذه القضــية فاصلة بالنســبة لأهدافه ومراميه •

ذلك ان أيا من أقطار العروبة لا يمكن أن يكون أثره وتأثيره على هذه القضية ــ القضية القومية المصيرية ــ بنفس الدرجة التى يمكن أن تنتج عن عروبة مصر أو عن نفى هــذه العروبة •

ان نفى العروبة عن مصر يعنى أول ما يعنيه ان كل دعاوى الأمة الواحــدة من المحيط الى الخليج لابد وأن تســقط ؛ ولابد وأن ينتهى الأمر الى عالمين منفصلين تماما احــدهما يقع فى آســيا والآخر يقع فى أفريقيا وبينهما فاصل جغرافى ضخم يتمثل فى ذلك القطــر الذى هو مصر •

ان سلخ مصر عن الأمة العربية لابد وأن ينتهى الى انهيار ذلك الكيان نتيجة الفصل الكامل بين مشرق ذلك الكيان ومغربه ولابد وان يؤدى الى وجود كيانين منفصلين لا رابط بينهما •
وكل الذين يريدون أن ينكروا حقيقة الأمة العربية الواحدة لابد وأن يستميتوا فى نفى عروبة مصر لأنهم ان نجحوا فى ذلك فانهمواصلون من أقرب الطــرق الى هدم هــذه الحقيقة وضربها فى مقتل لا تقوم بعــده أبدا •

كذلك ومن ناحية ثانية فان الكثافة السكانية فى مصر تصل من حيث العدد الى ما يقرب من ثلث سكان الوطن العربى كله ، وهــذا الثلث

لأسباب تاريخية كثيرة يمثل فى الوقت الحاضر والى مرحلة قادمة غير قصيرة قوة العمل الأساسية فى هذا الوطن سواء كان ذلك العمل ذهنيا أو يدويا ، نظريا أو علميا ، مدربا تدريبا عاليا أو تدريبا متوسطا أو حتى غير مدرب أصلا •

ونفى صفة العروبة عن هذا العنصر البشرى الهام لابد وأن يعنى ان المدرس المصرى والمهندس المصرى والطبيب المصرى والعامل المصرى الذين حملوا عبء اعادة بناء الوطن العربى فى النصف قرن الأخير هم أغراب وأجانب فى سائر أقطار العروبة — نفى هذه الصفة عن هذا العنصر البشرى لابد وأن يعكس نفسه فى نظرة متبادلة بين المصريين وسائر العرب تقيم بينهم الحواجز النفسية والذهنية والشعورية جميعا وتؤدى الى نظرة تفتقر الى الثقة والطمأنينة وتمتلىء بكل صنوف الشكوك والريب •

والذين يريدون أن ينفوا صفة العروبة عن مصر يعنيهم أن يكرسوا الشكوك والريب وأن يزرعوا عدم الثقة بين العرب والمصريين من ناحية أخرى • بحسبان ان هؤلاء وهؤلاء لا ينتمون الى أمة واحدة وفى مثل هذا الجو يستطيعون أن يصلوا الى أغراضهم وأهدافهم التى سنعرض لها بعض قليل •

وكذلك ومن ناحية ثالثة فان نفى صفة العروبة عن مصر لابد وأن يؤدى الى احداث خلخلة تاريخية يبدو معها تاريخ الوطن العربى وكأنه ليس تاريخا واحدا وانما تواريخ متعددة متناقضة بل ومتصارعة فى بعض مراحل هذا التاريخ •

ان نفى صفة العروبة عن مصر بما يؤدى اليه من خلخلة تاريخية سيجعلنا نتكلم عن ما يمكن أن يقال له الاستعمار العربى فى مصر وعن الاستعمار المصرى فى أجزاء من الوطن العربى وسيبدو ذلك الوطن أجزاء متصارعة متحاربة لا يجمع بينها على مدى قرون عديدة اطار واحد

مشـــترك حتى وان حدث داخل ذلك الاطار من الصراعات مثل ما يحدث فى كل الوحدات التاريخية والجغرافية الكبيرة فى العالم كله •

الذين يريدون أن ينفوا عروبة مصر يعلمون ذلك كله ويدركونه ويهدفون اليه وهم يعرفون جيدا ان معنى ذلك يتمثل فى أمر واحـد أساسى : مجموعة من التشرذمات لا قيمة لاى منهـا فى الحاضر أو فى المستقبل ــ فى عالم العمالقة المعاصر يراد للوطن العربى أن يظل دائما مجموعة من الأقزام ، قد تختلف أطوال هـذه الأقزام وقد يختلف وزنها ولكنها ستظل جميعا وعلى أى حال فى اطار التجزئة مجموعة من الأقزام بالقياس الى عالم العمالقة •

وهل هنـاك هدف عندهم أقوى من هـذا الهدف وأهم منه وأكثر استراتيجية وأبعد أثرا على موازين القوى فى العالم • أفلا يستحق هـذا الهدف كل هـذه الضجة وكل هـذا الالحاح لنفى عروبة مصر •

والا يستحق هـذا الهدف ان تعد من أجله الدراسات وان تبذل الوعود وان تعقد المؤتمرات ؟

ومن ناحية أخـرى فان الذين يقولون بعروبة مصر يدركون جيدا ويعون أن معنى ذلك أن يتأكد وجود الأمة العربية الواحـدة المتواصلة من المحيط الى الخليج ذات الثقـل البشرى المتكامل وذات المـوارد الاقتصادية الضخمة وذات السـوق الواسع وذات التاريخ المشـترك والمصير المشـترك وذات اللغـة الواحـدة والقيم الحضارية والروحية الواحـدة •

الذين يقولون بعروبة مصر يدركون ان ذلك لابد وأن يعنى ان العملاق العربى الذى كان لابد وأن يعود ، وهم ــ مثلهم فى ذلك مثل خصومهم على الجانب الآخر ــ يدركون مدى أهمية ذلك الهدف وخطورته واستراتيجيته البعيدة وتأثيره على موازين القوى فى عالم اليوم والى مدى بعيد فى الزمان •

من هنا كان الالحاح ثم الالحاح من هـذا الفريق على نفى عروبة مصر ومن ذلك الفريق على اثبات تلك العروبة ٠

ان القضـية ليست سـهلة ، انها ليست مجرد قضـية أكاديمية تثار من أجل مجرد استعراض العضلات الذهنية ، انها قضـية مصير وقضية صوالح أساسية يعرفها جيدا كل من الطرفين المتجادلين ٠

أن نكون أو أن لا نكون ٠٠٠

وعلى الذين يريدون لنا أن نكون ويعرفون حقيقـة عروبة مصر وحقيقة دورها حتى وان غشاه ما غشى فى بعض الأحيان ــ على هؤلاء أن لا يقعوا فى شـباك تعد للجميع من أجل الوصول الى عزلة مصر أو عزلها ، فان معنى ذلك بالضرورة هو ارتداد حركة القومية العربية ومدها الثورى التحررى ، وهذا هو عين ما يستهدفه أولئك الذين يقفون على الجانب الآخر من القضـية ٠

هل هنـاك بالنسبة لهم أبهى من هـذه الصورة ؟

مصر معزولة مقطوعة الأوصال ضعيفة جاثية ترجو العون من أعدائها الحقيقيين ، وأقطار العروبة الأخرى فى حيرة من أمرها لا تكاد تتفق على شىء الا أن لا تتفق ٠

ونصبح جميعا أمة تمضغ الكلام ولا تفعل شـيئا قط ٠

وأليس هـذا ما يتصورون أحيانا انهم قد وصلوا اليه بالفعل ؟

ولكنهم ينسون أن التاريخ لا يقف ، وأن تفاعلات كثيرة وعوامل موضوعية تحدد مساره وان حركة التاريخ هى فى جملتها حركة صاعدة حتى وان حدثت انكسارات فى بعض الفترات ٠

أن نكون أو أن لا نكون ٠٠٠

هـذه هى القضـية ٠

الذين يريدون لنا أن لا نكون يحرصون على نفى عروبة مصر ٠

والذين يريدون لنا أن نكون يحرصون على اثبات هـــذه العروبة وتأكيدها •

واعتقد ان هـــذا القدر ـــ على ما فيه من ايجاز وتركيز ـــ فيه الاجابة الكافية على السؤال الذى بدأنا به هـــذا المقال : لمـــاذا يلح التساؤل ويتكرر بين الحين والحين حول عروبة مصر ومصر بالذات دون أجزاء الوطن العربى الكبير •

وننتقل الآن الى صلب الموضوع وجوهره •

وأتصور ان ثمة قضية أساسية لابد وأن نحسمها بادىء ذى بدء •

ان الوجود العربى شىء غير التحرك القومى غير الفكر القومى •

هـــذه أمور ثلاثة ـــ حتى وان بدت متداخلة ـــ الا انهـــا مع ذلك متميزة •

ولابد لنـــا اذا أردنا أن نعالج قضية عروبة أى جزء من أجزاء الوطن العـــربى أن تكون هـــذه القضايا الثلاث ومفاهيمها واضحة فى أذهاننا حتى لا تختلط علينا البديهيات وتتوه الحقائق •

وعلى ضوء ذلك نبحث عن حقيقة الوجود العربى فى مصر •

فيم يتمثل هـــذا الوجود أساسا ؟

ولابد وان نعترف منـــذ البداية أن الوجود العربى لابد وأن يكون وجودا واحدا حيث كان فى مصر أو فى غيرها من الأجزاء التى يتحقق فيهـــا ذلك الوجود ، والذى نلمسه ونحسه ونعرفه فى كل أجزاء ذلك الاطار الذى يعرف باسم الوطن العربى •

ونعود الى التساؤل : فيم يتمثل هـــذا الوجود أساسا ؟ وهل نقابل ذلك الذى يمثله الوجود العربى فى مصر بالذات ؟

ونبدأ بأن نؤكد ان قضـــية « الجنس » ليست قضـــية أساسية ولا جوهرية ولا هى واردة بالنسبة لاثبات الوجود أو نفيه •

ونبدأ بتأكيد ذلك لأن البعض أخيرا حاول أن يربط بين القومية العربية ووحدة الاصول والاجناس الامر الذى لم يقل به أحـــد له وزن ســـواء بالنسبة للنظرية القومية عموما أو بالنسبة للقومية العربية على التخصيص •

ومع ذلك ومن باب الجدل المحض فان الشعب العربى فى مصر لم يكن فى يوم من الأيام جنسا قائما بذاته منفصلا عن الجنس العربى ان جاز أن يقال أن هنـــاك جنس عربى خالص ونقى •

وفى عصور سحيقة من القدم لم يكن البحر الأحمر موجودا وكانت المنطقة كلها وحـــدة جغرافية واحـــدة وكان الانتقال بين ســـائر أجزائها أمرا طبيعيا وكان اختلاط الســـكان فى المنطقة كلها أو وحـــدة عنصر هؤلاء الســـكان أمرا طبيعيا لا يثير التساؤل •

وبعد حدوث الانكسار فى القشرة الأرضية الذى أدى الى وجود البحر الأحمر فان الهجرات البشرية من قلب الجزيرة العربيـــة الى الصومال وجنوب وادى النيل وشماله لم تتوقف قط •

يقول الدكتور جمـــال حمـــدان « مع ذلك فكل الغطـــاء البشرى الذى يغطى ما يعتبر الآن العالم العربى هو أساسا فرشة واحـــدة من جزء واحـــد • وعلى الأقل فان الاختلاط والانصهار الدموى بين العرب والوافدين والسكان الأصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى • على أن الذى يكشف خواء المناقشة من أساسها ويجعلها جوفاء حقا انها تمثل منطق مزايدة وهروب : ففى عقر دار العرب سنظل نجد «العرب العاربة» و « العرب المستعربة » ولكن لا نسمع من يقول ان عرب الشـــمال ليسوا عربا ولكنهم متكلمون بالعربية • ولا ندرى الى أى مدى يمكن المضى فى تجريد جزء آخر من العرب العاربة بدورها من أصالتها » •

والأستاذ عمر عزة دروزه في كتابه « عروبة مصر قبل الاسلام وبعده » يأخذ على عاتقه مهمة اثبات ان المصريين القدماء والمحدثين جميعا هم عرب وان القطيعة التي يراد لها أن تقوم بين جنس عربي من ناحية وجنس مصري من ناحية أخرى هي قطيعة مقصودة وهي أيضا موهومة . وقد رجع الأستاذ في كتابه الى العديد من المراجع العربية وغير العربية التي تناقش هذا الموضوع محاولا اثبات هذه القضية .

ومع تسليمنا بنبل المقصود من هذه الدراسات والأبحاث ومع اعتقادنا بصحتها العلمية فانها فيما نتصور قضية لا تستحق كل هذا الجهد وكل هذه المعاناة .

ان ينحدر العرب جميعا في كل أقطارهم من جنس واحد ومن أصلاب واحدة أو أن ينحدروا من أجناس وأصلاب متعددة ليست هي القضية الجوهرية في الوجود العربي ولا في الكيان القومي .

أن الجميع متفق على انه لا يوجد في العالم كله اليوم جنس واحد نقي ، وان وسائل المواصلات والهجرات والغزوات الاستعمارية وحركات التنقل المستمرة كل هذا لم يعد من الممكن بعده الحديث عن جنس نقي .

حقيقة هناك صفات بشرية غالبة نجدها في هذه المنطقة ولا نجد مثلها تماما في تلك المنطقة ، ولا شبهة في أن سكان الوطن العربي تجمعهم صفات مشتركة تقرب بينهم وتميزهم عن غيرهم من سكان المناطق الأخرى في العالم . هذا في ذاته حق ولكنه لا يدعونا الى القول بوحدة الجنس العربي . وعلى أي حال فلسنا مضطرين الى القول بمثل ذلك من أجل اثبات الوجود العربي والكيان القومي الواحد .

فيم يتمثل الوجود العربي اذن ؟

ان الوجود العربى يتمثل فى مجموعة من القيم التاريخية والثقافية والنفسية ومن ثم فانه يتمثل فيما يمكن أن يقال له حضارة واحدة .

ومن ناحية التاريخ فانه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا فان العوامل التاريخية المؤثرة هى عوامل واحدة فى سائر أجزاء ما نطلق عليه اسم الوطن العربى ومن بينه مصر .

منذ الفتح العربى لمصر ثم امتداد تلك الفتوح الى الشمال الافريقى ومصر ـ شأنها فى ذلك شأن الأجزاء الأخرى ـ لا نعيش تاريخا مستقلا وانما هى تعيش تاريخا مرتبطا أوثق ارتباط بتاريخ الأجزاء الأخرى .

موجات الارتفاع واحدة ، وموجات الانكسار واحدة والخطر واحد ، ومحاولات دفع الخطر وصده واحدة . والذى يرصد التاريخ الانسانى لا يمكن أن يقف عند جزئيات المسائل وان يحسب بحساب الأيام والشهور ليقول بل لا : لقد كانت مصر فى سنة كذا وكذا من التاريخ فى حالة ازدهار على حين ان سوريا أو العراق أو تونس كانت على حال أخرى.ليس هكذا ينظر الىالتاريخ الانسانى والا لجاز لنا أن نقول ان دلتا النيل قد مر عليها فى بعض الأوقات ما لم يمر على صعيد مصر من الأحداث . ان الذى يتحدث عن التاريخ فى هذه المنطقة لابد وأن ينظر الى أحداثه الكبرى وتأثيراته البعيدة وتياراته الأساسية وهو عندئذ لابد وان يدرك انه تاريخ فى جوهره واحد وفى تأثيره واحد . وهو واحد فى كل الأجزاء ومن بينها بل وفى واسطتها ذلك الجزء المعروف جغرافيا باسم مصر .

أما من ناحية القيم الثقافية فان أبرزها وأوضحها يتمثل فى اللغة . واللغة العربية لغة الغالبية العظمى من أبناء تلك المنطقة الجغرافية الممتدة من المحيط الأطلسى الى الخليج العربى والتى يسميها الوحدويون « الوطن العربى » ونقول الغالبية العظمى آخذين فى الاعتبار الاقليات الكردية والبربرية والزنجية التى تعيش على أطراف ذلك الوطن وتتكلم

غير لغته أما ما عدا ذلك فلغة الجميع هى لغة واحـدة وان اختلفت لهجاتها كما تختلف اللهجات بالنسبة لكل لغات العالم •

ومن ذا الذى لا يستطيع أن يفرق بين لهجة أهل باريس من الناطقين بالفرنسية ولهجة أهل مارسيليا وجنوب فرنسا بصفة عامة •

وكذلك الحال بالنسبة لكل البلاد وكل اللغات •

والشىء الذى قد يحتاج الى دراسـة بالنسـبة للهجات داخل الوطن العربى ان لهجة معينة قد توجد فى جزء من قطر عربى وتوجد فى جزء آخر من قطر عربى آخر بينهما مبعدة ، وقد يفسر ذلك بارتحال القبائل وبعوامل الهجرة من مكان الى مكان •

هنـاك لهجات فى بعض مناطق تونس تسمع مثلها فى صـعيد مصر الأوسط (المنيا وبنى سويف) والحديث عن تقارب اللهجة بين أهل الفيوم وأهل برقة حديث معروف •

وقد أستطيع أن أقدم للباحثين فى موضوع اللهجات ملحوظة قد تسترعى انتباه بعضهم •

هنـاك قرية كبيرة فى احـدى قرى محافظة المنوفية على فرع رشـيد — أحد فرعى دلتـا النيل — يصل سكانها الى حوالى خمسة وعشرين ألفا واسمها جزيرة الحجر ، وهذه القرية لها لهجة تختلف بشكل واضح عن لهجة القرى المجاورة لها والتى تبعد عنهـا سواء من الشمال أو الجنـوب بأقل من كيلو متر واحد ولهجة هـذه القرية — جـزيرة الحجر — هى ذات لهجة أهل البحرين فى كيفية النطق •

انك تسـمع الرجل من هـذه القرية وتسـمع الرجل من دولة البحرين فلا تكاد تفرق بين طريقتيهما فى النطق ولهجة الحديث •

فكيف تأتى ذلك ؟ وما دلالته ؟

وعلى أى حال فقد حاول البعض أن يتحدث عن اللهجات وكأنها لغات قائمة بذاتها ولكنها محاولة عابثة ذلك انه حتى فى داخل الأقطار الأجزاء تختلف اللهجة من منطقة الى منطقة بل وأحيانا من قرية الى قرية ، واختلاف اللهجات لا يقدح فى وحدة اللغة . ان العربى فى الرباط يفتح المذياع ليسمع القاهرة أو دمشق أو بغداد لا يجد فى ذلك مشقة ولا يحس اغترابا . وان الصحيفة من بيروت أو من بغداد أو من القاهرة لتسعى فى كل أرجاء الوطن العربى بغير حاجة الى وسيط أو ترجمان .

واذا تركنا مجرد اللغة وذهبنا الى أبعد من ذلك حيث الثقافة فانه لا يمكن أن يجرى حديث الا عن ثقافة عربية واحدة .

ان دارس الأدب فى تونس أو فى الجزيرة العربية أو فى بلاد الشام أو فى مصر ليدرس أبا العلاء المعرى والمتنبى والجاحظ ومن اليهم على انهم أسلافه الثقافيون ، ولا يشعر احدهم انه يدرس ثقافة بعيدة عنه أو غريبة عليه أو انها ثقافة وطن غير وطنه أو انها تنتمى الى بلاد غير بلاده أو تاريخ غير تاريخه .

وليس الأمر فى الثقافة العربية قاصرا على الأدب وحده ذلك أن مكونات العقل العربى شأنها شأن مكونات الوجدان العربى واحدة أيضا : المتكلمون والفقهاء والفلاسفة والعلماء يوشك المثقف العادى عندما يسمع أسماءهم أن لايعرف أين ولد هذا وأين عاش ذلك وأين دفن هذا الأخير ، هو لا يعرف عنهم الا أنهم مفكرون عرب ساهموا فى تكوين العقل العربى وانضاجه .

قل الامام أبو حنيفة أو الشافعى أو قل البيرونى أو جابر بن حيان أو قل ابن سينا أو ابن رشد أو قل ما شئت من أسماء الاعلام من مؤسسى الفكر العربى وسدنته فى كل ميدان فانك لن تستطيع أن

تقول ان أثر هذا قد توقف عند هذا أو ذاك القطر ولكن سترى وستحس أنهم جميعا ساهموا فى تكوين العقل العربى فى كل مكان من أرض العروبة وسيتعذر عليك ان لم يستحل أن تحبس أثر واحد منهم فى مكان بعينه •

واذا كان ذلك متحققا بالنسبة للتراث فانه متحقق أيضا بالنسبة للحاضر •

لغة واحدة اذن ونتاجها ثقافة واحدة تجدها فى مصر كما نجدها فى الشـــام كما تجدها فى الجـــزيرة أو فى تونس أو فى غير ذلك من أقطار العروبة •

واذا كان هـــــذا هو شأن التـــاريخ والثقافة فان المزاج النفسى للمواطن العربى يوشك أن يكون فى أسسه مزاجا واحدا •

نحن لا ننـــكر أن التركيب النفسى يختلف من فرد الى فرد حتى داخل الأسرة الواحدة ولكننا عندما نتكلم عن المزاج النفسى نعنى الأسس العـــامة والخطوط العريضة لكيفية ردود الأفعال العفوية فى الاغلب الأعم ــ وكيفية مواجهة الحياة والانفعال بها •

المزاج العربى يميل الى نوع من الصوفية والغيبية وتعيش فى أعماقه البعيدة مسحة من حزن وتفكيره فى الموت يتعايش مع عمله من أجل الحيـــاة •

وفى المزاج العربى حب للتدخل فى أمور الآخرين ، وهو يحمل نفسه حملا على قبول قضايا العلم ، ويطرب لسماع الشعر ، وتهزه الموسيقى الخفيفة ذات الايقاع المرتفع •

والمزاج العربى أقرب الى الانفعال منه الى الروية وأقرب الى الذاتية منه الى الموضوعية وفى المزاج العربى شهامة واستعداد للتضحية والبذل وحب لأن يعرف الآخرون ذلك ويقدروه •

والمزاج العربى بذلك كله ــ شأنه شأن كل الأمزجة النفسية ــ خليط من ايجابيات وسلبيات معينة تشترك فى تكوينه •

وهــذا المزاج العربى تلمسه لدى ابن الخليج العربى فى أقصى المشرق ولدى ابن مصر وابن الشمال الأفريقى فى أسسه العامة وخطوطه العريضة •

حقا اننا نجد ابن العراق وابن الجزائر ــ على العموم ــ أكثر حــدة فى مزاجه من ابن مصر وابن المغرب ولكنك اذا تعمقت الأمور ولم تقف عند ظاهرها وجدت مكونات المزاج العربى واحدة أو متقاربة فى المواقف المتشابهة •

والذى لا شبهة فيه ان العوامل التاريخية الواحــدة وان الثقافة الواحــدة وان المزاج النفسى الواحــد انتجت ما يمكن أن يقــال له الحضارة العربية الواحدة •

وما الحضارة الا نظرة معينة للكون والانسان والعلاقات البشرية ، ويتمثل ذلك كله فى أنماط من القيم والسلوك •

والذى لا شك فيه ان الاســلام ــ وهو دين الغالبية العظمى من أبنــاء الوطن العربى ــ أسهم اسهاما ضخما فى صــنع الحضارة العربيــة ــ مع العوامل التاريخية والثقافية والنفســية ــ وجعلهــا ما هى عليــه •

وكل هــذا الذى تحدثنا عنه من تاريخ وثقافة وحضــارة هى ما نعنيه عندما نتحدث عن « الوجود » العربى ، هــذا الوجود الذى نلمسه فى سائر أقطار الوطن العربى •

واذا انتقلنا ــ بالنسبة لهذا الوجود ــ من المجرد الى الواقع

فما الذى نراه ونلمسه بالنسبة لهذا الوجود فى مصر بالذات وهى محل بحثنا وتساؤلنا ؟

لندع الماضى البعيد فان أمره لا يثير جدلا كبيرا ــ سواء من حيث اثباته أو نفيه ــ وانما الجدل كل الجدل حول الحاضر لأنه هو الذى يعنى ويهم الجميع •

فما شأن هذا الحاضر فيما يتعلق بقضية « الوجود » العربى فى مصر •

خذ المكونات التاريخية ••

وخذ بعدها أو معها المكونات الثقافية ••

ثم خذ بعد ذلك المزاج النفسى ••

خذها جميعا ــ فرادى أو مجتمعات ــ فانك واجد مصر مثلا لا يخطىء على الوجود العربى فى أى جانب من جوانبه •

تأثرت بالتاريخ العربى داخل الوطن العربى وأثرت فيه واندمجت معه ، واذا نظرت الى التاريخ العربى من خارجه أى فى علاقته بالقوى الخارجية فان مصر عامل مؤثر بل وحاسم أحيانا كثيرة فى حركة ذلك التاريخ •

أما عن تأثرها وتأثيرها فى التاريخ العربى الداخلى فهذا أمر واضح منذ أن دخلها عمرو بن العاص ثم منذ أن تكونت فيها حكومات ــ أو دول كما يقال تجاوزا ــ ارتبطت ارتباطا قويا أو عارضا بدولة الخلافة هنا وهناك ، ومن الملاحظات التى لا تخلو من دلالة ان حكام مصر الأقوياء فى أواخر العصر العباسى الثانى ــ كانوا يستقدمون أفرادا من بيت الخلافة ويجعلون لهم الخلافة اسما وما لهم فى حقيقة الأمر من سلطان•

واذا نظرنا الى التاريخ العربى من خارجه فان دور مصر فى ذلك التاريخ غير مجحود ولا منكور ، واشارة الى حروب المغــول وحروب الصليبين ودور مصر فيهــا تكفى للدلالة القاطعة من غير حاجة الى تفصــيل •

هى وحدة الوجود التاريخى اذن عاشتها مصر مع وطنها العربى بل وفى القلب من هــذا الوطن الكبير بحكم موقعها الجغرافى وكثافتها السـكانية •

أما عن الوحدة الثقافية العربية فقد عاشتها مصر أيضا منذ قرون الى أن عقــد لهــا فى أواخر القرن المــاضى وأوائل هــذه القرن حمل لواء الثقافة العربية ، ولا شك أن الأزهر لعب فى هذا المجال ــ على مدى عدة قرون ــ دورا رئيسيا واضحا وقــد كان الأزهر فى فترات الانحطاط والظلام هو الحمى الذى استكنت اليه العربية وهجع فيــه الاســلام •

وليس مصادفة أن أروقة الأزهر كانت تحمل أسماء أجزاء كثيرة من الوطن العربى الكبير •

وليس مصادفة أيضا أن كثيرين من شيوخ الأزهر وعلمائه كانوا من ســائر أقطار العروبة •

وقد كانت مصر هــذه قبلة يتجه اليها كثيرون من الاعلام فى دنيــا الثقافة العربية بشتى مناحيها •

ويكفى أن تذكر أســماء الشــافعى وابن خلدون وابن النفيس والمتنبى ــ وكل منهم قمة فى ميدانه وغيرهم كثيرون لتدرك ان القاهرة شأنها فى ذلك شــأن بغداد ودمشق والقيروان وفاس كانت وتدا من الأوتاد التى استندت اليها الثقافة العربية الواحدة وقامت بها وعليها •

وهكذا فان الوجود الثقافى العربى فى مصر كان وجودا بارزا منفعلا أحيانا وفاعلا فى الكثير من الأحيان •

أما المزاج النفسى العربى فيوشك المصرى العـادى ـ الفلاح المصرى على التخصيص ـ أن يكون هو المثل الواضح على هذا المزاج النفسى ٠

وقد ذكرنا الفلاح المصرى بالذات لأنه ذلك الكائن الأصيل الذى يريد بعض المثقفين من أبنائه أن يجردوه ظلمـا وعـدوانا من عروبته وأصالته ٠

واذا كانت العوامل السـابقة كلها من تاريخية وثقافية ونفسية هى التى تكون ما يسمى « الحضارة العربية » وكانت هـذه العـوامل كلها قد أسهمت فى الوجود المصرى وأسهم فيهـا الوجود المصرى فان اختلاط الوجود المصرى بالوجود العربى ـ بل وذوبانه فيه وصيرورته جزءا منه ـ تصبح من الأمور البديهية التى يكون التسـاؤل بشـأنها تساؤلا يحمل معنى الغفلة أو معنى سوء النية أو كليهما جميعا ٠

عندما كنت أقرأ ذلك الجدل حول عروبة مصر خطرت لى خاطرة ساذجة ولكنها استوقفتنى : ان منزلى يقع فى شارع اسمه جابر بن حيان والشارع الذى يليه شارع ابن مسعود ٠ فما الذى يمنع أن أفتح دليل تليفونات القـاهرة اعتباطا على أى صفحة من صفحاته لاقرأ أسـماء الشـوارع ٠ وقد فعلت فماذا وجدت ؟ شارع الملك غازى ـ شارع الحجاز ـ الخليفة المنصور ـ السيدة عائشـة ـ شـيخون ـ هارون الرشيد ـ جامعة الدول العربية ـ الهلالية ـ السيد البيلاوى ـ الملكة زبيدة ـ عمرو بن العاص ـ الامام الليثى ـ الخليفة المأمون ـ درب المغاربة ـ الحسين ـ شارع أبو درع ـ عبادة ٠٠٠

هـذه مجموعة أسـماء قرأتها كلها فى صفحة واحـدة ـ فتحتها بغير قصد ـ من دليل التليفون لمدينة القاهرة(١) ٠

---

(١) ص ٧٢٢ من آخـر طبعة من طبعات هـذا الدليل وما يجرى بالنسبة لهذه العينه العشوائية يجرى لغيرها ٠

ما الذى يعنيه هـذا السيل الزاخر من الأسماء العربية لشوارع القـاهرة • انه يعنى ببساطة أن وجدان المواطن العادى يعيش هـذه الأسـماء فى صباحه وفى مسائه ويختلط وجودها بوجوده •

انها ملاحظة ساذجة كما قدمت ولكنها لا تخلو من دلالة •

لعل هـذه الملاحظة أن لا تدفع بعض الحمقى الى شن حملة لتغيير الأسماء العربية الى أسماء فرعونية أو أوربية أو عبرية لا يحسن الناس لهـا نطقا ولا فهما ولا تقترب من وجدانهم من قريب أو من بعيد •

ولست أريد أن أختم هـذا المقال بهذه الخاطرة الساذجة التى لا تخلو من دلالة •

ولكنى أتساءل بصدق وبأمانة هل يعقل أن يكون الوجود العربى فى مصر مشكوكا فيه لدى أحد من أبنائها أو من أبنـاء الوطن العربى فى الوقت الذى توشك كل الحركات الثورية العربية وكل الثوار العرب أن لا تجد لها ملجأ ولا ملاذا فى أوقات الشدة والأزمات — وما أكثرها فى غير مصر •

هل يعقل أن يكون الوجود غير العـربى هو « الحضن » لـكل وجود عربى •• ما أشد التناقض اذن وما أغربه •

هل يعقل أن يكون الوجود العربى فى مصر محلا للتساؤل على حين أن مصر هـذه هى التى حمت هـذا الوجود نفسـه فى غيرها من الأجزاء ، وهى التى أيقظت هـذا الوجود من سـباته فى سائرها •

كل شىء يتصور بالنسبة لكاتب هـذا السطور الا أن ينظر من منظور اقليمى ولعل هـذا هو الذى يسمح لى أن أقول انه فى أغلب أجزاء الوطن العربى فانه ما من كاتب أو قارىء بالعربية الا علمه أو علم من علمه أو شارك فى تعليمه عربى من مصر • ويقال بعد ذلك أن الوجود العربى فى مصر محل للتساؤل •

أقول هـذا لاولئك الذين يحاولون من أبنـاء مصر ان يعزلوها عن أمتها قبل أن أقوله لاولئك الذين ينكرون حقها من أبناء هذه الأمة .

ان الوجود العربى فى مصر حقيقة راسـخة ، حقيقة حياة .. وحقيقة تاريخ .. وحقيقة مصير .. ولن يغير من هـذه الحقيقة مثـال هنا أو تعليق هناك .

ولن يغير منهـا كل المحاولات التى تتم فى غيبة الشعب العربى وعلى غير ارادته ورضاه .

انتهيت من تحرير هذا المقال فى اول ديسمبر ١٩٧٨ ونشر فى مجلـة المستقبل العربى التى يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت بعد ذلك ببضعة شهور .

حقيقة الانتماء القومي

من نحــن ؟

هل مازال هــذا السؤال مطروحا لدى البعض ؟ يبدو أن الأمر كذلك ٠ وهــذا أمر يجب أن نعترف به مع شــعور بالمرارة شديد ٠

نحن مصريون ونحن جزء من الأمة العربية ٠

ليس هناك أبسط من هــذه الاجابة ولا أوضح منهــا ومع ذلك فان بعضا منا يريد أن يقف عنــد الجزء الأول من الاجابة فيقول « نحن مصريون فقط » ، وقد كنا نعتقد أن هــذا البعض لم يعد موجودا وأن أكثر من خمسة وعشرين عاما من عمر ثورة يولية قد كشفت عن وجه مصر العربى وجعلت انتماءها القومى ــ ذلك الانتماء الذى كان موجودا وقائما لقرون طويلة ــ ليس محلا لشك أو تساؤل ٠ وكنا نتصور أن مواثيق الثورة ودساتيرها جميعا وآخرها دستور ١٩٧١ قد حسمت هــذا الأمر حسما ليس بعده من خلاف ٠

وأنا من الذين يؤمنون بحرية الرأى ايمانا لا يحده قيد ، ومن الذين لا يضجرون بالخلاف فى الرأى بل والذين يعتقدون أن اختلاف الآراء وتعدد المذاهب وصراع الأفكار هى من دلائل حيوية الأمــة وحياتها الخصبة ونموها العقلى ٠

ان الرأى الواحد الذى يحجر على غيره ، والتنظيم الواحد الذى يرهب غيره ، والحاكم الفرد الذى يريد أن يستأثر بالحكم وحده ــ ان هذا كله ان دل على شىء فانما يدل على ضعف كامن وخوف من مواجهة الغير وعدم ثقة فى النفس عميق الجذور ٠

هــذا كله لا يحتمل الجدل عندى وهو موقف فكرى أعلنه دائما وأعتز باعلانه والدفاع عنه .

ومع ذلك فان أولئك الذين يريدون لمصر أن تعزل عن وطنها العربى ولشعب مصر أن ينفصل عن أمته العربية ـ أولئك الذين يذهبون هذا المذهب ليسوا فى تقديرى أصحاب رأى وانما هم منكرون لحقيقة من حقائق الوجود الانسانى أتصور أنها لا تحتمل الانكار .

ان الذين يختلفون مثلا حول النظــام الحزبى ومدى صلاحيته لكل الشـــعوب يختلفون حول مسألة تحتمل تعدد الآراء ، ولكن الذين يقولون مثلا ان تمثال رمسيس ليس موجودا فى ميدان المحطة لا يقولون رأيا وانما ينكرون حقيقة واقعة لا تحتمل الانكار .

والذين ينكرون عروبة مصر وانتماءها القومى يقفون فى تقديرى فى نفس موقف الذين يقولون ان تمثال رمسيس ليس موجودا فى ميدان المحطة وأنه مازال فى مكانه القديم .

ومع ذلك وبكل رحابة صدر دعنا نفتــرض افتراضـــا أن هؤلاء أصحاب رأى وأن رأيهم قابل للمناقشة .

ولنناقش رأيهم أولا على المستوى الفكرى ثم لنناقشه بعد ذلك على مستوى المصالح العاجلة والآجلة على حد سواء .

وحتى تكون المناقشة الفكرية واضحة وبسيطة ومقنعة فلنضـــع أمامنا القضيتين الآتيتين :

أولا : مصر جزء من الأمة العربيـــة .

ثانيا : مصر ليست جزءا من الأمة العربية وانما هى كيان بشرى قائم بذاته ومنفصـــل عن غيره .

أى هاتين القضيتين يتفق مع الحقيقة ؟

وحتى نفصل فى أمر هاتين القضيتين فانه يجب علينا أن نعرف الأمة تعريفا يصعب حوله الخلاف •

والأمة مجموعة من الناس تتكلم لغـة واحدة ـ وان اختلفت لهجاتها ـ وتعيش على اقليم متصل ـ فى الأصل ـ وأنضجها تاريخ مشـترك على مدى من الزمن طويل نسبيا بحيث يؤدى ذلك الى نوع من الوحدة الحضارية والثقافية ، ثم لابد لهذه المجموعة من الناس أن تحس احساسا واعيا بوحدة المصير نتيجة المصالح المشـتركة الحالية والمسـتقبلة •

ما أظن أن هـذا التعريف للحقيقة البشرية المعروفة باسم «الأمة» يثير خلافا ذا بال •

واذا أردنا على ضوء هـذا التعريف أن ننظر الى الشعب المصرى لنقضى فى أمر انتمائه أو عدم انتمائه الى الأمة العربية فلا شك أننـا سنجد شعبا يتكلم اللغة العربية ويعيش على رقعة من الأرض تتصل من شرق ومن جنوب ومن غرب بشعوب تتحدث نفس اللغة وأن هـذا الشعب يعيش منـذ أكثر من اثنى عشر قرنا فى ظـل ذات الظروف والمكونات والعوامل التاريخية التى حكمت ما نقول له شـعوب الأمة العربية الأخـرى ، وأن الشعب العربى فى مصر رغم عمق تاريخـه الحضارى الذى يمتد الى آلاف بعيدة من السنين قبل الميلاد فان الجو الحضارى والثقافى الذى يعيش فى ظله اليوم ومنـذ قرون عدة هو جو حضارى وثقافى عربى فى الأسـاس •

هـذا الشعب المصرى اذن شأنه فى ذلك شأن الشعب العراقى والشعب الجزائرى والشعب السودانى وغير ذلك من شعوب الوطن العربى هى أجزاء أمة واحدة هى الامة العربية •

فاذا لم يكن ذلك صحيحا فهل الصحيح أن يقال ان الشعب المصرى يتكلم اللغـة العربية حقا ولكن ذلك لا يعنى أنه جزء من الأمة العربية ،

والشعب المصرى ارتبط تاريخه لمــدة تزيد على اثنى عشر قرنا بتاريخ ما اصطلح على تسميته بالعرب ولكن ذلك لا يعنى أنه منهم ، والشعب المصرى رغم أن المخاطر التى تتهدده هى ذات المخاطر التى تتهدد من حوله من الشعب العربى ورغم أن مصيره وخلاصه مرتبط بمصير وخلاص هــذا الشعب الا أن ذلك لا ينفى أن الشعب المصرى شعب قائم بذاته ولا صلة له بمن حوله • ! !

على هذا المستوى من التبسيط يمكن أن تطرح القضية وأن يستبين وجــه الرأى فيهــا ان كان الأمر يحتمل التعدد فى الآراء •

ان الشعب المصرى جزء من الأمة العربية • وهــذه حقيقة لم تعد فى حاجة الى اثبات والذين ينكرونها لن يجدى معهم جدل ولا نقاش ولن يقنعهم شىء لسبب بســيط وهو أنهم يريدون أو يراد لهم هــذا الانكار ولا يريدون أو لا يراد لهم أن يقتنعوا بغير هذا الموقف •

هــذا على المستوى الفكرى •

فماذا على مستوى المصالح سواء منهــا العاجل أو الآجل ؟

وما أكثر ما نسمع من بعض دعاة الاقليمية والانعزالية : ماذا فعل العرب لمصر ؟ لقد ضحت مصر بكذا وفعلت كيت فماذا فعل لها العرب ؟

والذين ينكرون ما فعلته مصر وما قدمته مصر وما ضحت به مصر وما عاناه شعب مصر انما ينكرون ما لا يجوز ولا يتصور انكاره •

ولكن الذى فعلته مصر بكل صوره وألوانه كان لمصر بقدر ما كان لهذه الأمة كلها ، ان دفاعنا عن حق الشعب الفلسطينى هو دفاع عن حق الشعب العربى فى مصر فى ذات اللحظة وان مساندتنا لكفاح الشعب الجزائرى هو دعم لنضال الشعب العربى فى مصر وفى كل مكان وان محاولة نقل اليمن من جهالات العصور الوسطى لكى توضع على مشارف القرن العشرين هى محاولة من أجل حماية ظهر الوطن العربى كله •

ويجب أن لا نخلط بين العمل وبين الخطأ فى تنفيذ العمل • ان حـرب اليمـن ــ ليسـت هى ــ بعض عمليـات النهـب واستغلال النفوذ التى حدثت أثنـاءها وانما هى نقل جزء من الشعب العربى من الظلام الدامس الى بعض أشـعة من ضوء مهما كانت خافتة الا أنها خير ألف مرة من الظلام الشامل •

ثم ألا يفكر دعاة العزلة والاقليمية فى حرب أكتوبر المجيدة تلك التى أنقذتنا من هوة نفسية عميقة ومن تمزق رهيب ــ ألا يفكر هؤلاء فى أن ما تحقق فى هذه الحرب ما كان يمكن أن يتحقق ــ رغم كل الكفاءة وكل الاعداد السـليم وكل الشـجاعة والتضحيات ــ لو أنه تم على مستوى اقليمى محض • هل يستطيع أحد أن ينكر أن ذلك النصر صنعه الجندى المصرى والجندى السورى وجنود آخرون من أبنـاء هـذا الوطن العربى ، وأكد أثره الموقف البترولى العربى ، حقا لقد حملت مصر العبء الأكبر ولكن هـذا أمر طبيعى لأن أرض مصر هى التى كانت محتلة ولأن مصر هى ثلث هـذا الوطن كله من حيث القوة البشرية •

والذين يتكلمون عن العزلة والاقليمية الضيقة ينسون مدى الحاجات الحيوية المتبادلة بين مصر وسـائر أجزاء الوطن العربى • هل تستطيع كثير من أقطار العروبة أن تسـير بغير الطاقة البشرية الفنية وغير الفنية التى تقدمهـا مصر ، وهل تستطيع مصر أن تعيش وحدها معزولة عن سـائر الوطن العربى ؟

وماذا يكون وزنها فى نظر العالم عندئذ ؟

ان وزن مصر فى ذاتها من ناحية وفى كونها جزء مؤثر وفعال فى الوطن العربى كله من ناحية أخرى • واننا نعيش فى عالم ينكر الكيانات الصـغيرة ولا يعبأ بهـا ويتجه الى تكوين الكيانات الضـخمة التى تستطيع أن تفرض ثقلها فى عالم مازالت القوة فيـه أعلا صوتا من كل ماعداها •

والعجيب أن هـــذا العالم ينظر الينا على أننـــا أمة واحـــدة ــ مع كل المحاولات من أجل تقسيمنا وعزلنا تميهدا لابتلاعنا ــ ونحـــن ننظر الى أنفسنا أو يريد لنا البعض أن ننظر الى أنفسنا على أننا كيانات جزئية منفصلة هزيلة ليس اسهل من احتوائها ثم ضربها واذلالها•ترى هل يرعوى دعاة الاقليمية وهل ينظرون الى أبعد من أقدامهم ؟ انهم عندئذ لابد قائلين « نحن مصريون ومصر جزء من الأمة العربية » •

ولست من دعاة القفز على الواقع ولا اغفاله ولا تخطيه ولكـــن التسليم بهـــذا الواقع والوقوف عنـــده شيء ورفضه رفضا ايجابيا ومحاولة تغييره بالعمل العلمى الجاد الناضج والمدروس شيء آخر •

وان مصر ستظل دائما قلعة العروبة وحضنها ، ولن يفت فى عضدها قول قائل هنا أو هنـــاك ممن لا يريدون لمصر منفعة ولا للوطن العربى كله قوة •

النظرية القومية والمصير العربي

أظن أننى لن أمل أبدا الحديث فى هـذا الموضوع ذلك اننى أومن ايمانا عميقا ـ تسنده كل الأسباب العقلية ـ بوحدة المصير العربـى وأن وحـدة المصير هـذه انما تقوم على أسـاس الوحدة القوميـة التى تجمع بين شـعوب الأمة العربية ، وأن هـذه الشعوب يرتبط أملها فى الحياة القوية المؤثرة بمدى ما يتحقق بينها من تضامن وترابط يمهدان لوحدة حقيقية قائمة على أسس سليمة وثابتة •

والشيء الذى يدعو الى كثير من التأمل أن العالم ـ ومنـذ وقت طويل مضى ـ ينظر الينا على هذا الاساس القومى على حين أننا ننظر الى أنفسنا ـ فى حالات كثيرة ـ على أسـاس اقليمى •

ومن الحقائق التاريخية البالغة الدلالة فى هـذا الصدد ما جاء فى التقرير الذى أعدته لجنة « بنرمان » فى عـام ١٩٠٧ • وقصـة هـذا التقرير تستحق الرواية • كان « بنرمان » هو رئيس حكومة المملكة المتحدة فى ذلك الوقت وكان زعيم حزب الأحرار الذى كان يتناوب الحكم آنذاك مع حزب المحافظين وكان رجلا ذا مزاج أكاديمى فكون لجنـة من مجموعة من الأسـاتذة والخبراء المتخصصين فى التاريخ وفى العلوم السياسية وفى الاقتصاد ، ولم يكن هؤلاء الأسـاتذة ينتمون الى المملكة المتحـدة وحدها وانمـا كانوا ينتمون الى عـدد من الدول الأوربية الاستعمارية ـ فى ذلك الوقت ـ مثل أسبانيا وهولندا وغيرهما •

وطرح الرجل على اللجنـة التى كونها عدة أسـئلة لتكون موضع دراستها وبحثها وعلى رأس هذه الاسئلة سؤال يقول ما معناه لماذا زالت الامبراطوريات القديمة واندثرت وكيف يمكن أن تتجنب الامبراطوريات

القائمة ــ آنذاك ــ هــذا المصير • والسؤال يعنى بعبارة أخرى كيف يمكن أن يطول ويمتد ويستمر عمر الاستعمار الغربى •

واجتمعت اللجنــة وتدارس أعضاؤها ثم وضعوا تقريرهم ذلك المشهور والذى بدأ يعرف منذ عدة سنوات •

وقالت اللجنــة فى تقريرها ــ مما يعنينا هنا ــ أن أخطر المناطق على الاستعمار الغربى تلك المنطقة التى تقع بين المحيط الأطلسى والخليج الفارسى ــ وكذلك يسمونه ــ لأن هــذه المنطقة يسكنها شعب واحــد يتكلم لغة واحــدة ويرجع الى مكونات واحــدة وتدين غالبيته بدين واحد ، وشعب هذه المنطقة تتوافر لديه كل خصائص الامة الواحــدة ، والخطر كل الخطر أن يدرك شعب هــذه المنطقة تلك الحقيقة وأن يسعى لاقامة دولة متحدة تعيش فى تلك المنطقة الحيوية من العالم • وأوصى وأضعوا التقرير للحيلولة بين تلك الشعوب وهــذه النتيجة أن تقسم المنطقة دولا صغيرة وأن يؤرث بينها وبين بعضها الخلاف قدر المستطاع وآن يحال بينها ــ قدر المكن ــ وبين رياح العــلم وأن تعمق بينها التجزئة تعميقا حتى لتصبح وكأنها ــ التجزئة ــ الشىء الطبيعى •

ولا يكتفى التقرير بذلك وانما يضيف أن كل ما سلف قد لا يجــدى نفعا فى وقت ينمو فيه وعى الشعب الذى يسكن تلك المنطقة ويدرك هويته الحقيقية ويسعى لاقامة دولة قومية وأن آخر سهم يمكن أن يقذف به للحيلولة دون حدوث ذلك الأمر هو أن يقام حاجز بشرى غريب فى المنطقة الواقعة شرق السويس بحيث يفصل ذلك الحاجز بين شرق هــذه الامة وغربها وبحيث يتخذ وسيلة لاستنزاف ثروات المنطقــة وضرب كل بارقة للتقدم أو التحرر فيهــا •

واذا تذكرنا أن هــذا التقرير قد كتب ســنة ١٩٠٧ وأن المؤتمر الصهيونى الذى قرر ــ بعد تردد ونقاش طويل فى مؤتمرات سابقة ــ اقامة الوطن الاسرائيلى فى فلسطين كان قد انعقد فى عام ١٩٠٤ ادركنــا الرابطة الوثيقة بين هذا القرار وذلك التقرير •

الى هـذا المدى كانوا وما يزالون ينظرون الينا على أننا أمـة واحـدة ، والى هـذا المدى كانوا ومايزالون حريصين الحرص كله على أن تغيب عنا هـذه الحقيقة وعلى أن نعيش فى الواقع المجزأ الذى فرض علينا والذى تصورنا ـ بمرور الوقت ـ أنه هو الوضع الطبيعى الذى نبدأ تفكيرنا عنده وننتهى اليه • والذين يخططون لبقاء الاوضاع القائمة على ما هى عليه يدركون جيدا أن مصر هى مركز الثقل البشرى والثقافى بالنسبة لهذه الأمة ولذلك فان محاولاتهم كانت تتجه دائما نحو أضعاف مصر وعزلها عن جناحى أمتها فى المشرق والمغرب ، وكان يسرهم دائمـا أن تكون مصر مثلا طاردا وليست مثلا جاذبا ، وحاولوا ـ ونجحوا الى حد غير قليل ـ فى أن يقنعوا كثيرا من المثقفين المصريين بأنهم ليسوا عربا وأنهم أصـحاب فضل على العرب وأن العرب ليس من ورائهم الا الجحود •

وانطلقت أقلام بحسن نية أو بسوء نية تبشر بهذا وتدعو له وغفلت عن أنهـا تتخذ أداة لخدمة أهداف هى أبعد ما تكون عن مصلحة مصر وعن مصلحة هـذه الأمة • ومن أسف أن بعض حملة الأقلام يعز عليهم أن يعدلوا عن خطأ وقعوا فيه حتى اذا استبان لهم وجه ذلك الخطأ •

واذا كانت هـذه الأقلام قد شرعت اسنتها فى مصر فان غيرها قد شرع أيضا فى أجزاء أخرى من الوطن العربى ـ ليخدم ذات الهدف وليحقق ذات الغرض الذى يستهدف أضعاف هـذه الأمة وضربها ـ لتشكك فى عروبة مصر ولتحاول جهدها أن تجعـل العرب ينفضون من حول مصر كما لو كان هناك أى أمل لأمة أن تعيش بغير قلبها وموطن الثقل فيهـا •

ومن الروايات التى تروى عن الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه اللـه ـ أنه كان يقول دائمـا : حذار أن « تطيح » ـ أى تقع ـ مصر فانها « ان طاحت طاح العرب جميعا » وقد كان ذلك الرجل ابن الباديـة والفطرة السليمة على حق فيما قال •

ان مصر ان سقطت ـ لا قدر الله ـ ووهنت ارادتها فان ذلك يعنى أن بقية أجزاء الأمة العربية لن تكون فى منعة بالنسبة لأى عدوان أيا كانت صورة العدوان • ومن الوهم أن نتصور أن العدوان الآن ينحصر فى صورة العدوان العسكرى فللعدوان الآن أشكال وألوان •

ومن هنا فان مصر القوية تعنى أمة عربية قوية • وهـذه معادلة لا أظن أن عربيا واحدا منصفا يمارى فيهـا •

واذا كان ذلك كذلك فان علينا هنا فى مصر أن نتصرف وأن نرسم خطواتنا ونحن نعى مسئوليتنا العربية لا على نطاق الاستراتيجية البعيدة فحسب وانما على نطاق التكتيك والتطبيق أيضا •

أننـا جزء من هـذه الأمة وان لنا حقا ـ لا شبهة فيه ـ أن نطلب من هـذه الأمة أن تقف معنا فى أزمتنا من أجل مستقبل هـذه الأمة كلها لا من أجلنا نحن فقط • كذلك وفى نفس الوقت فان علينا أن نسلك وأن نتصرف ونحن نعى حقيقة مسئوليتنا تجاه هـذه الأمة التى هى مسئوليتنا تجاه أنفسنا فى ذات الوقت •

ان التحرك والجهـد الـذى يبـذل من أجـل ايجـاد قاعدة حقيقية لتضامن عربى صلب ومن أجل نزع كل رواسب الشك من النفوس ـ هذا التحرك لا بد وأن يتبعه عمل متصل ينميه ، وجهـد حقيقى على المستوى الشعبى وعلى المستوى التنفيذى يحيله الى حقائق تختلط بفكر الناس وحياتهم ولا بد أن يترجم ذلك كله الى خطط عمـل واضحة ومستمرة •

ومن يدرى لعلنا فاعلون •

الوطن العربي والعالم الثالث

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن العـالم الثالث وكثرت عنـه الدراسات ، والغريب أن هذه الأحاديث وتلك الدراسات كانت فى جملتها تأتى من خارج العالم الثالث •

ونحن فى الوطن العربى نقع فى القلب من ذلك العالم الثالث ونحمل ازاءه مسـئولية ليست بالقليلة ولا الهينة •

وعلى ذلك فان سؤالين أساسين يطرحان نفسهما علينا •

أولا : ما الذى نعنيه عندما نتحدث عن « العالم الثالث » ــ وما الذى يشـير اليه ذلك العالم ؟

ثانيا : ما هى مسئوليتنا فى الوطن العربى ازاء ذلك العالم الثالث باعتبارنا جزءا لا يتجزأ منه ؟

وفى محاولة الاجابة عن التساؤل الأول فان الحديث عن هـذا العالم الثالث يفترض ــ بالضرورة أن هناك عالمين آخرين غيره ، فما هما هذان العالمـان ؟

ان أوربا الغربية والجزر البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية وكنـدا توشك أن تشـترك فى أساس حضارى واحد وفى معالم أساسية فى أنظمتها السياسية الراهنة هى ما يطلق عليهـا عادة اسم الديمقراطية الغربيـة التقليدية ، وهـذه المجموعة من الدول بأساسها الحضارى المشـترك وبنظامها السياسى وبأوضاعها الاقتصادية توشك أن تكون عالمـا قائما بذاته .•

وان الاتحاد السوفيتى وبلاد أوربا الشرقية وان كان لا يجمع بينها فى المـاضى أساس حضارى مشترك الا أنها خـلال العقود الأخيرة من هـذا القـرن الذى نعيش فيه آمنت بأيديولوجية معينة

هى النظرية الماركسيةورسمت حياتها الاقتصادية والاجتماعيةوالسياسية جميعا على ضوئها ووفقا لمبادئها مما يجوز معه أن نقول ان تلك المجموعة من الدول بأيديولوجيتها وبنظامها السياسى تمثل هى والدول التى تؤمن معها بنفس النظرية عالمـا آخر قائما بذاته أيضا •

وتبقى بعـد هذين العالمين مجموعة أخرى كبيرة من دول العالم لا تشترك مع العالمين السابقين فى الأســاس الحضارى ولا فى الايمان بالعقيدة المـاركسية •

وهـذه المجموعة من دول العالم تمتد لتشمل قطاعا ضخما من القارة الآسيوية وتوشك أن تحتوى القارة الأفريقية كلها والأغلب الأعم من أمريكا اللاتينية •

هـذه المجموعة من الدول هى ما تعنيه عادة عبارة العالم الثالث •

واذا كان التحديد الســابق لمعنى « العالم الثالث » هو تحديد سلبى بمعنى انه يعرف العالم الثالث باستبعاد ما لا يعتبر كذلك ، فهل لعبارة « العالم الثالث » معنى ايجابى ؟

بعبارة أخرى هل هناك خصائص مشـتركة بين دول العالم الثالث تجيز لنـا أن نضعها جميعا فى اطار واحد يجعل منهـا عالمـا قائما بذاته هو العالم الثالث ؟

نستطيع أن نقول باطمئنان أنه يوجد من هذه الخصائص المشتركة ما يبيح لنا أن ننضم الى القائلين بهذه العبارة : عبارة العالم الثالث •

فما هى هـذه الخصائص ؟

أول هذه الخصائص هو الميراث الاستعمارى ، اذ توشك دول العالم الثالث كلها أن تكون قد عاشت خلال القرنين الماضيين بل وأغلب الفترة المـاضية من القرن الحالى فى ظل الاستعمار الغربى • بل ان بعض هذه الدول عاشت لأكثر من خمسـة قرون وهى مستعمرات لبعض الدول الغربيـة •

وهـذه الخاصية الأولى هى الخاصية الأكثر عمومية والأكثر اتفاقا بين دول العالم الثالث •

وقد دخل الاستعمار هـذه البـلاد فى بادىء الأمر وفى أعقاب النهضـة الأوربية الحديثة فى القرن الخامس عشر تحت سـتار نشر المسـيحية •

ولكن الاستعمار الغربى اضطر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن يتشح بسـتار آخر غير المسيحية بعد أن شاعت الدعوة الى الدولة العلمـانية وكان هذا السـتار هو دعوى تحـديث تلك البـلاد وتحضيرها •

ولعله يجـوز لنا أن نسـأل الى أى مدى كانت تصرفات الدول الاستعمارية تتفق وما كانت ترفعه من شـعارات وتقدمه من تبريرات لاستعمارها لدول العالم الثالث ؟

أما عن الحضارة المسيحية فيكفى أن نعرف أن فكرة الاستعمار الرئيسية التى كان يتصرف على مقتضاها ـ سواء أعلن تلك الفكرة أو اخفاها ـ هى سـيادة الرجل الأبيض وما يؤدى اليه ذلك من تمييز عنصرى وهـذه الفكرة مناقضة تمام المناقضة للمسيحية التى تؤمن بالاخوة الانسـانية والتى لا تجعل من لون البشرة معيارا يقاس به الناس يعتبر به بعضهم سادة والبعض مسودين •

كذلك فان دعوى التعمير وتمدين البلاد المستعمرة ثبت أنها هى الأخرى لم تكن غير ثوب شـفاف يخفى تحته كل المطامع الاقتصادية والاستعمارية •

ولعل أول خطوة فى تعمير بلد وتمدينه تكمن فى العمل على نشر التعليم فى مثل ذلك البلد وقد ترك الاستعمار كثيرا من البلاد المحتلة وليس فيهـا واحـد يحمل شـهادة عالية •

والحقيقة أن الاستعمار لم يكن يهدف من وراء احتلال تلك البلاد الا الى امتصاص ثرواتها الطبيعية والى ايجاد أسواق لمنتجاته وربط اقتصادياتها باقتصادياته .

وعندما نصل الى قضية امتصاص ثروات البلاد المستعمرة والى القضية الاقتصادية فى الواقع نصل الى المحصلة الأساسية للميراث الاستعماري الذى وجدته دول العالم الثالث بين أيديها عشية أنتهاء الاستعمار بصورته التقليدية .

وهكذا نجد الميراث الاستعمارى لدول العالم الثالث . ميراث ثقيل بالغ السوء يكبل حركته ويعوق مسيرتها نحو الأمام .

ميراث سىء فى كل ناحية : بشرية واقتصادية وسياسية .

وهذا الميراث السىء يوشك أن يكون خاصية عامة ــ وان اختلف من حيث الدرجة ــ بين دول العالم الثالث جميعا .

وهذه الخاصية بدورها ساهمت فى وجود الخصائص الأخرى التى سنتحدث عنها مساهمة كبيرة أحيانا وجزئية أحيانا ولكنها ساهمت فيها على كل حال .

والخاصية الثانية التى نجدها لدى دول العالم الثالث هى التخلف الاقتصادى والاجتماعى ، ويقاس التخلف الاقتصادى والاجتماعى بمعيارين أساسيين متكاملين ومتلازمين فى الغالب ، ويتعلق أول هذين المعيارين بمستوى دخل الفرد ويتعلق الثانى بتقديم الفنون الانتاجية ، واذا نظرنا الى العالم الذى نعيش فيه فاننا سنواجه بحقيقة مرة وقاسية يكشف عنها سوء التوزيع البشع بين دخول الأفراد فى الدول المتقدمة ودخول الأفراد فى الدول المتخلفة والتى تقع فى نطاق العالم الثالث الذى نتحدث عنه .

وهذه الدول تجمع الى جوار ضآلة مستوى الدخول تخلفا واضحا فى الفنون الانتاجية ، ويزيد من حدة هذه الظاهرة وخطورتها أنه رغم هبوط مستوى الدخل فانه توجد داخل تلك البلاد فى العادة قلة قليلة

توشك أن تستأثر بكل مصادر الثروة مما يجعل حالة الفقر لدى الغالبية تصل الى صورة بالغة القسوة ٠

ولا شك أن التخلف الاقتصادى والاجتماعى يرتبط الى مدى كبير بالميراث الاستعمارى الذى تحدثنا عنه باعتباره الخاصية الأولى المشتركة بين دول العالم الثالث ٠

أما الخاصية الثالثة فهى التمزق القومى وعدم الوعى بمفهوم الدولة اذ تشيع هذه الظاهرة بين دول العالم الثالث بقـدر متفـاوت ذلك أن عـددا كبيرا من هـذه الدول خاصة فى أفريقيا ما زالت تعيش فى مرحلة قبلية وما زالت لا تكون أمما واضحة السمات والمعالم ، وكثير من هذه الدول فى أفريقيا بل فى آسـيا أيضا يتكلم أهله لغات عديدة ولا يجدون وسـيلة للتفاهم المشـترك فيما بينهم الا لغات الدول الاستعمارية نفسها ومن ثم شاع الكلام عن افريقيا الناطقة بالفرنسية وأفريقيـا الناطقة بالانجليزية ، ونفس المشـكلة تواجهها بعض البلاد الآسيوية خاصـة الهند وباكستان وأندونسيا ٠

وفى تلك البلاد جميعا لا توجد الأمة الواحدة التى ترتكز عليهـا الدولة الواحدة ، ولا توجد العناصر الناضجة لتكوين الأمة ولا يوجد ذلك الاحساس بالانتماء المشـترك الا الى القبيلة ٠

وليس من المبالغة أن نقول ان الوجود الاستعمارى فى تلك البلاد حال بين شعوبها وبين السير فى الخطوات الطبيعية التى سارت فيهـا الشـعوب الأخرى فى سـبيل استكمال نضجها وتكوينها لأمتها الأمر الذى تحقق للشـعوب الأوربية والتى كان التكون القومى فيهـا سابقا على قيام الدولة الحديثة ٠ ذلك فضلا عن المحاولات الاستعمارية التى نجحت فى كثير من هـذه البلاد من أجل توطين اللغات الأوربية وتحطيم لغات الشـعوب المستعمرة نفسـها واحالتها الى مجرد لهجات غـير مكتوبة ولا مقروءة فى غالب الأحوال ٠

كذلك فان عمليات الحدود المصطنعة والتقسيمات الاستعمارية لتلك البلاد التى لم تأخذ فى اعتبارها الحقائق الجغرافية والبشرية أدت الى تمزيق القبائل الكبيرة التى كان من الممكن أن تكون أساسا لنوع من التطور القومى وجعلت من هـذه القبائل أجزاء تنتمى الى دول عدة .

هـذا هو العالم الثالث وهـذه هى خصائصه المشتركة بين بلاده والتى تبرر اطلاق اصطلاح « العالم الثالث » عليها .

واذا كان هـذا هو العالم الثالث فما هى مسئوليتنا فى الوطن العربى ازاء ذلك العالم باعتبارنا نقع فى القلب منه ونؤثر فيه ونتأثر به ؟

الشىء الذى لابد وأن نقرره أن الدول العربية البترولية ــ أما بطريق مباشر وأما عن طريق صناديق التنمية التى أنشأتها ــ قد قدمت الكثير من المساعدات الاقتصادية والقروض الميسرة لغير قليل من دول العالم الثالث .

ولكن تلك البلاد مدعوة الى أن تمد يدها للمساهمة فى كثير من مشروعات التنمية فى بلاد العـالم الثالث حتى تستطيع تلك البـلاد أن تتخلص من تخلفها ومن تبعيتها لاقتصاديات الدول المتقدمة .

وكذلك فان بلاد الوطن العربى لابد وأن تحمل مسئوليتها ازاء دعم جبهة دول عدم الانحياز وجعلها جبهة ايجابية مؤثرة فى موازين القوى فى هـذا العالم الذى نعيش فيه .

ومن ناحية أخرى فانى أتصور أن بعض بلاد الوطن العربى سواء تلك التى يتوافر لديها الكادر الفنى والعلمى أو التى تتـوافر لديهـا الامكانيات الاقتصادية أو بتعاونهما معا ــ وهو الأجدى ــ تستطيع أن بجهد علمى بلغ الأهمية وان بدت فائدته محدودة فى المدى القصير ولكنه على المدى الطويل بالغ الفائدة .

ذلك الجهد يتمثل فى انشاء معهد علمى أكاديمى على مسـتوى عال من التخصص يتفرغ للدراسات المتعلقة بالعالم الثالث من كل جوانبها سواء كانت دراسات تتعلق بالموارد الطبيعية فى تلك البلاد أو بأوضاعها

الاقتصادية بصـــفة عامة أو كانت دراسات اجتماعية تتعلق بالعادات والتقاليد والأوضاع السكانية أو دراسات سياسية أو ادارية أو قانونية أو غير ذلك من الدراسات ، ويجب أن لا يكون ذلك المعهد مكانا لالقـــاء المحاضرات والدروس ، وانما يقوم العمل فيه على أســـاس مجموعات بحثية تتكون من أساتذة متخصصين من ناحية ومن طلبة تجاوزوا مرحلة المـــاجستير ويعدون أبحاثهم للدكتوراه من ناحية أخرى ، وما تجريه هذه المجموعات البحثية من دراســـات وما يعده الطلبة من رســـائل للدكتوراه عن مشاكل العالم الثالث يقوم المعهد بنشره ودفعه للافادة منه فى بلاد ذلك العالم .

وأرى أن يصدر عن هـــذا المعهد دورية علمية بأكثر من لغة تصـــدر فى البداية كل ستة أشـــهر أو حتى كل سنة وتتناول هـــذه الدورية مشاكل العالم الثالث على نحـــو علمى وعلى أســـاس منهج مدروس ومعد ســـلفا بحيث لا يترك الأمر للمبادرات والاجتهـــادات الفردية .

وذلك كله فى تقديرى يمثل جزءا أساسيا من مسئوليتنا فى الوطن العربى ازاء العالم الثالث : ذلك العالم الذى ننتمى اليه وينتمى الينا وتنظر الينا شـــعوبه نظرة لا تخلينا من تلك المسئولية .

فهل نحـــن فاعلون ؟

الشعارات والواقع فى حياتنا

يندر أن تجد أمة من الامم تخلو حياتها من شعارات معينة يرفعهـا أبناؤها ويعتزون بها • وهـذا أمر طبيعى بل هو يبدو أمرا واجبا أحيانا• ذلك ان الشعارات فى حياة الشـعوب تمثل حلاوة الأمل • والشـعوب شأنها فى ذلك شأن الأفراد تصبح حياتها جافة اذا خلت من الأمل •

والشعارات عنـد الشعوب الناضجة هى أمل أو هدف يتجه الشعب نحو تحقيقه بخطوات مرسومه ومدروسه حتى ولو كانت صعبة وبطيئة • ومن ثم فان المسـافة بين الواقع والشـعار عند الشـعوب الناضجة هى مسافة تضيق بصـفة مستمرة ذلك لأن جهدا جادا يبذل بصـفة دائبة لكى يحول الأمل الى عمل أو الشـعار الى واقع ، حتى ولو كانت

الحيـاة لا تتوقف والآمال لا تنتهى فان الشعوب الناضجة اذ تسير الى الامام واذ تحقق بعض آمالها تجد نفسها تلقائيا أمام تحديات جديدة وآمال جديدة وشعارات جديدة ومن ثم أمام جهد متجدد يبذله أبناؤها من أجل تطور حياتهم وتحسينها •

واذا كانت الصورة السـابقة هى الصورة السوية فان ثمة شعوبا ترفع شعارات ضخمة وتكتفى برفعها وتخدع نفسـها ويصبح رفع الشـعار هدفا فى ذاته بصرف النظر عن السعى نحو تحقيقه وبمرور الأيام تتسع المسافة بين الشـعار المرفوع وواقع الحيـاة التى يعيشها الناس ويتكرر ذلك ويؤدى الى نتيجة حتمية هى أن يكتشف الناس زيف الشـعارات وبطلانها وأنها لم تكن الا وسـيلا للايهام أو للخـداع أو التخدير •

وبعض الشـعوب فى فترات تخلفها ــ وكل الأمم والشـعوب مرت بمثل هذه الفترات ــ تتخذ أحيانا من الشعارات الضخمة وسـيلة تخفى وراءها عجزها عن الفعل وتهيء لنفسها أحيانا قد تطول ان رفع الشعار فى حد ذاته يغنى عن السعى نحو تحقيقه •

واذا انتقلنا من هــذا الكلام المجرد الى الواقع الملموس فكيف نستطيع أن نصنف أنفسنا نحن شعوب الأمة العربية •

أين نضع أنفسنا بصدق وموضوعية ؟

قبل أن أستطرد فى الاجابة على هــذا التساؤل فأنى أقرر اننى واحــد من الناس الذين يؤمنون ايمانا صادقا وعميقا بأصالة الشعب العربى وبأنه شعب قادر على « الفعل » وان فترات من تاريخه تثبت ذلك الذى أقول •

ولكن الشعب العربى فى فترات أخــرى من تاريخه طالت أحيانا بأكثر مما ينبغى كان يبدو عليــه نوع من الهمود والعى حتى لكأنه غير قادر الا على كــلام يمضغه مضغا ثم يلقيه بصــوت له ضجيج ، وأصحاب الأصوات العالية هم عادة أقل الناس مقدرة على العمل المنتج •

واذا كان شعبنا العربى قد مر فى تاريخه على كل من الصورتين فما هو واقعنا المعاصر ؟

اننا نرفع شعارات ضخمة وكثيرة فى كل مكان من أرض العروبة فهل ياترى تضيق المســافة بين ما نرفع من شعارات وبين واقعنا وبذلك نحسب فى زمرة الشعوب الناضجة • أم ان المســافة بين ما نرفع من شعارات وبين واقع حياتنا تزداد اتساعا كل يوم •

علينا ان نحاذر من التعميم وتبسيط الأمور أكثر مما ينبغى لها • وعلى ذلك فقد يكون صحيحا أن نقول اننا فى الأغلب نضع الكلمة قبل الفعل ، ونقول فى أحيان كثيرة ما لا نقدر على فعله بل وما لا نقصد الى فعله ، ويطرب اذاننا رنين الكلمات بأكثر مما يطربها وقع أقدامنا منطلقة نحو تحقيق أهدافها •

فى كل أقطار العروبة ــ أو قل فى أغلبها ــ كلام كثير وشعارات ضخمة عن الحرية وكلام كثير وشعارات ضخمة عن الاشتراكية وكلام كثير وشعارات ضخمة عن الوحدة وكلام كثير وشعارات ضخمة عن قضية فلسطين والوطن السليب • فهل نستطيع أن نجد عملا جادا يتكافأ مع ضخامة الشعارات ويقربها من الواقع أو يقرب الواقع منهـا •

ما أظننى أسـتطيع ــ وما أظن منصفا يسـتطيع ــ أن يجيب بالايجاب• •

وأعتقد أن الاستمرار على هـذا الاسلوب سيجعل العالم المتحضر لا يأخذنا مأخذ الجد بعد أن جاءت لحظة فى تاريخنا المعاصر جعلت المجتمع الدولى يراجع حساباته ويهيأ له لفترة من الزمن أننا عدنا مرة ثانية لنصبح من أصـحاب الفعل القادر المؤثر واننا لم نعد من أولئك الذين يكتفون بمجرد القـاء الكلمات الرنانة ثم الاسـتماع الى وقع صداها • كان ذلك فى الأيام المجيدة من أكتوبر العظيم خلال عام ١٩٧٣

فى تلك الأيام اقترب واقع حياتنا من شـعاراتنا المرفوعة على مستوى الجمعات وعلى مستوى الأفراد وأحسسنا جميعا انتغييرا عميقا أصاب سلوكنا وطبعه بطابع الجد والاستقامة والايمان بالعمل •

وقد قلت أكثر من مرة اننا لم نسطع أن نستثمر نصر أكتـوبر استثمارا حقيقيا بل استثمرناه كلاما واحتفالات ، بمعنى آخر استثمرناه شعارات ولم نستثمره فعلا على المستوى الذى كان ينبغى له •

وأنا أتكلم هنا على مستوى الأمة العربية كلها لا على مستوى قطر من أقطارها فقط •

والخطورة الحقيقية فى بقاء شعاراتنا منفصلة عن واقعنا ان ذلك قد يؤدى ــ بل هو قد أدى بالفعـل ــ الى نوع من الانفصـام فى شخصيتنا ــ نقول شـيئا ونفعل شـيئا آخر ونبقى ممزقين بين القول والفعل مما يؤدى الى نوع من العجز النفسى وهو من أخطر ما تصاب به الشـعوب •

لكن ما العمل وهـذا هو الحـال ؟؟

هل هى طبيعة الشعب العربى أن يرفع شعارات وأن يبقى فى الواقع بعيدا عنهـا لا يتحرك نحوها ٠

لو كان ذلك صحيحا لمـا كانت لنا فى تاريخنا فترات نقدر فيهـا على الفعل قدرة رائعة مؤثرة على حركة التاريخ الانسانى كله ٠

ولو كان ذلك صحيحا لمـا كانت تلك الحال مثار شـكوى هـذا الشعب بل ومثار سخريته فى كثير من الأحايين ٠

ما العمـل اذن ٠ ؟

الحل فى تقديرى أن نأخذ حياتنا ـ جميعا حـكاما ومحكومين وأصحاب رأى ومستقبلين للرأى بنوع من العلمية الصارمة تطبع قولنا وسلوكنا وتجعل من شعاراتنا أهدافا حقيقية نسـعى اليها لا مجـرد كلمات نرفعها ونتغنى بها ونقف عند ذلك ٠

وهـذا مطلب ليس سـهلا ذلك أن حياة الشـعوب لا تتشكل وفق ارادة بعض أبنائها مهما كانوا مخلصين ٠

وهنا فان مسئولية أصحاب الرأى تبدو ضخمة وجسيمة ذلك أنهم لابد وأن ينبهوا دائمـا وأن يحذروا دائمـا من خطورة انفصام القول عن الفعل ولابد وأن يكشفوا دائمـا الشعارات الزائفة التى لا معنى لهـا ولبد لهم أن يمسكوا بميزان دقيق يحاسبون به أنفسهم أولا ثم يحاسبون به رافعى الشعارات وفقا لمـا يسلكون ويتصرفون ٠

واذا استطاع أصحاب الرأى أن يأخذوا هـذا الموقف الأمين فانهم لابد محدثوا أثرا فى شـعوبهم ولابد بالتالى أن يحثوا أثرا فى سلوك أولئك الذين يتصدرون الشـعوب ٠

الإنسان الوسيلة والغاية

يهيأ لى أحيانا أننا نحاول بكل الطرق والوسائل أن ننمى حياتنا وأن نرفع مستواها ومع ذلك فان الذى نحققه لا يتكافأ مع ما نبذل من جهد • ولا شك أن جانبا كبيرا من ذلك يرجع الى ضخامة حجم ما نعانيه من مشاكل والى تراكمها وبعد جذورها •

كذلك فان من الأسباب الأساسية لما يبدو لنا من عدم التكافؤ بين ما يبذل من جهد وما يتحق من نتيجة قصور ما لدينا من وسائل العلم الحديث أو ما يقشال له التكنولوجيا الحديثة • ولا شك أيضا أن الاساليب الادارية التى نتبعها هى فى أغلبها أساليب متخلفة لا تتفق مع المفاهيم الحديثة لعلم الادارة العامة والتنظيم الادارى ومن شأن ذلك أن يجعل العائد أقل مما يجب أن يأتى به الجهد المبذول • كذلك نان من الاشياء الرئيسية لما يبدو لنا من بطء فى تحقيق معدلات التقدم المنشود أننا لا ندرك القيمة الحقيقية لعنصر الوقت ، ومن الطريف أن من أمثلتنا القديمة مثل يقول الوقت من ذهب ، ومع ذلك فاننا نتصرف فى حياتنا وكأن ليس هناك أرخص ولا أقل قيمة من الوقت ••• ذلك الذى تذهب اللحظة منه ولا تعود أبدا ولو أنفقنا فى سبيل ذلك ما فى الأرض جميعا من عملات حرة وغير حرة •

ولست أريد فى هذا الحديث أن أتكلم عن شىء من ذلك كله رغم ادراكى أن هذا الذى ذكر هو بعض العوامل الاساسية التى تعوق انطلاقتنا وحركتنا الى ما نريد •

ولكن الذى أريد أن أتحدث عنه هو شىء آخر يأتى قبل ذلك كله وبعد ذلك كله ويحيط بكل هذه العوامل جميعا •

انه الانسان •

ان الانسان هو الغاية من كل تنمية نقصد اليها وهو فى نفس الوقت

الوسيلة الأولى والجوهرية لاحداث أى تنمية نقصد اليها وبغير هـذه الوسيلة فان كل شىء يبدو هدرا ٠

وهنا يثور سؤال : هل الانسان العربى يختلف « فى طبيعته » عن غيره بحيث توجد لديه فى ذاته معوقات تحول بينه وبين أن ينمى ذاته أو أن يحدث التنمية المطلوبة فيما حوله ؟

أعتقد اعتقادا لا يداخله الشـك أن الاجابة الوحيدة على هـذا التساؤل هى بالنفى ٠

يبقى بعد ذلك أن الانسان العربى لم يتح له من الظروف الموضوعية فى العصر الحديث ما يمكنه من أن يحقق ذاته أفضل تحقيق وأن يعطى أفضل ما يستطيع من عطاء ٠

لماذا لم يتح للانسان العربى أن يحقق أفضل ما يستطيع ؟

وبغير لف أو دوران فان السبب الاساسى فى ذلك يكمن فى أن « انساننا » لم يتح له من الحرية ــ سواء فى ذلك الحرية السياسية أو الحرية الاجتماعية ــ ما يجعله ينمو نموا طبيعيا ذلك أن الحرية هى المجال الطبيعى الذى تنمو وسطه الذات الانسانية ، فاذا أحاط بالانسان ما يكبت حريته فان ملكاته لابد وأن تذبل ولابد أن يصاب بنوع من العقم والاحباط ٠ وقد عاش الانسان العربى قرونا فى ظل الاستعمار التركى البغيض ثم عاش سنوات طوالا بعد ذلك فى ظل الاستعمار الغربى بكل ويلاته فلما انقشع عنه الاستعمار الغربى عاش فى أغلب بلاد العرب فى ظل أنواع من الحكم التسلطى القائم على ارادة فرد واحد يبرم كل شىء ويقرر فى كل شىء ويرتد اليه الأمر كله ، وفى ظل مثل هذه الأوضاع فان ارادة الانسان وكل ملكاته يصيبها نوع من الشلل الذى يصيب الاعضاء نتيجة عدم الاستعمال ٠

واعتاد الانسان العربى أن يحيل كل أمر الى السلطة وأن ينظر

اليها على أنها قادرة على كل شيء ، وأدى ذلك بدوره الى ذبول احساسه بالمسئولية تجاه المصلحة العامة ، ولم تحاول السلطة من ناحيتها أن تنمى ذلك الاحساس بالمسئولية لأنه مرتبط ارتباطا سببيا بالشعور بالحرية ذلك أنه لا مسئولية بغير حرية وفى غياب الحرية يغيب الاحساس بالمسئولية • ولا شبهة أيضا فى أن انتشار الجهل وشيوع الخرافة كانت بدورها من الاسباب التى أظهرت الانسان العربى بمظهر العاجز تجاه مشاكل العصر الحديث ومتطلباته •

واذا صح ذلك التشخيص — وهو صحيح فى تقديرى — فان التساؤل الذى يرد بعد ذلك هو : وكيف الخلاص ؟

لا خلاص الا فى أن يعيش ذلك الانسان فى جو حر وأن يتنفس هواءا حرا وأن يأكل لقمة حرة • ولكن القضية ليست بهذه السهولة التى تبدو عليها ذلك أن الحرية لا توهب وانما تؤخذ أخذ ، كذلك فان الحرية عندما تؤخذ تحتاج الى تنميتها والحرص عليها ، ذلك أن التفريط فى قدر من الحرية يؤدى الى تفريط آخر ، كما أن قبول قدر من الطغيان يغرى بزيادة الطغيان وكل الطغاة الكبار بدأوا طغاة صغارا بل ان أغلبهم كان يدعى أنه يطغى من أجل الحرية ولا تناقض فى الدنيا أبعد من هذا التناقض •

لابد أن يحس الانسان عندنا أنه مشارك مشاركة حقيقية فى كل قرار يتصل بحياته ومصيره لا أن يجد نفسه دائما أمام قرارات تهبط عليه ثم يقال له انها من أجل مصلحته ومن أجل مستقبله ، ان الانسان مهما كان حظه من الثقافة محدودا — طالما أنه يتمتع بقواه العقلية — فانه أقدر الناس على معرفة مصلحته وعلى المشاركة فى اتخاذ قرارات بشأنها ، ان الوصاية على الشعوب لا تؤدى الا على الاضرار بالشعوب وتأخير نموها وتعطيل احساسها بالمسئولية •

ماذا نريد من « انساننا » العربى — فى كل أوطان العروبة — وماذا نريد له لكى يسهم اسهاما حقيقيا فى صنع التقدم •؟

نريد من هذا الانسان ــ ونريد له فى نفس الوقت ــ أن يشعر أنه سيد مصيره وأنه صاحب قول مسموع فيما يتعلق بمستقبله ، والشعوب مرهفة الحس ذكية الفؤاد لا يمكن خداعها حتى وان تظاهرت هى بذلك ، ومن هنا فان كل كلام لا يصاحبه عمل حقيقى من أجل وضع هذا المعنى موضع التنفيذ العلمى لا تأخذه الشعوب الا مأخذ الهزل وتزجية الفراغ •

ونريد من هذا الانسان ــ ونريد له فى نفس الوقت ــ أن يشعر أنه صاحب هذه الأرض وسيدها وأن أوطان العروبة ليست « عزبة » لهذا الحاكم أو لذاك أو لهذه المجموعة أو تلك وانما أوطان العروبة هى ملك لأبناء الشعب كلهم أجمعين •

نريد من هذا الانسان ــ ونريد له فى ذفس الوقت ــ أن يعرف متى يقول نعم ومتى يقول لا وأن يقول هذه وتلك عن قناعة وايمان وفى أمان •

ونريد من هذا الانسان بعد ذلك أن يؤمن بالعمل وبأن العمل هو أسمى قيمة فى الدنيا وبأن العمل الدائب هو وحده الذى يمكن أن يصنع التقدم •

ونريد احساسا بالمسئولية لا يسمح لأحد بأن يتوانى عن عمل ولا يتسامح مع مخطىء فى حق من حقوق هذا الوطن •

بذلك يستطيع الانسان العربى أن يصنع التقدم وبذلك تستطيع أمة العرب أن تعيش عيشة كريمة بين الأمم •

تيار يبحث عن منبره

لا شك أن القرار الذى قضى بانشاء منابر ثلاثة ثابتة تكون هى ركائز العمل السياسى ومنطلقه فى المرحلة القادمة هو قرار بالغ الاهمية بالنسبة للممارسة الديموقراطية فى بلادنا ولا جدال فى أن هذا القرار سيغنى تلك الممارسة ويثريها ويملؤها حيوية وخصبا •

وأقل ما يقال فى هذه الصورة من صور الممارسة الديموقراطية أننا سننتقل بها من مرحلة الرأى الواحد الذى لا يحتمل المخالفة أو المعارضة الى مرحلة الآراء المتعددة بكل ما تحمله من اتساع الأفق وامكانية الوصول الى الحقيقة أو الاقتراب منها قدر الممكن •

كذلك فانه فى ظل هذه الصورة سيلتقى أولئك الذين تجمع بينهم أرضية فكرية مشتركة حتى وان اختلفوا أو اختلف بعضهم فى بعض التفصيلات أو حتى فيما هو أكثر من ذلك مادامت نقاط الالتقاء بينهم أكثر من نقاط الاختلاف •

وقد رؤى أن منطق المرحلة لا يحتمل أكثر من ثلاث منابر تعمل كلها داخل اطار الوحدة الوطنية ، وهذه المنابر لابد وأن تكون بالضرورة منبرا يمينيا يمثل القوى المحافظة فى المجتمع التى تريد أن تسير ببطء والتى يداعب الماضى خيالها ويشدها اليه أحيانا ، ومنبرا وسطا لا يبطىء ولا يسرع ، لا ينسى الجذور ولا يريد أن يعدو عدوا ، ومنبر ثالث يضم فئات اليسار ـ وما أكثرها ـ يريد أن يغذ السير ويسرع بحركة التقدم ويؤمن أكثر ما يؤمن ـ وفق ما يعتقده ـ بمصالح أوسع الجماهير وأعرضها •

ولا شك أن كل منبر لابد وأن يضم بداخله أكثر من تيار • فمنبر الوسط لابد بالضرورة وأن يوجد تيار على يمينه وتيار على يساره ولكن كتلته الغالبة تمثل الوسط الحقيقى •

وفى مصر تيار يبحث عن منبره بين هــذه المنابر الثلاث ٠

فما هو هــذا التيــار ؟

هــذا التيار هو التيار القومى العربى الذى يؤمن بانتماء الشعب العربى فى مصر الى الأمة العربية انتماء الجزء الى الكل والذى يؤمن أن القومية فى عصرنا هــذا لا يمكن أن تكون بغير مضمون اشتراكى ديموقراطى ذلك أن القومية بغير هــذا المضمون تصبح قومية عدوانية من نوع القوميات التى شاهدها القرنان الثامن عشر فى أوربا والتى تم بمقتضاها توحيد المــانيا وايطاليا وغيرهما من البلاد الأوربية ، ويقترب من هــذا التصور بعض الصرخات الطفولية التى نسمعها أحيانا فى الوطن العربى والتى ليس لها فى مصر ــ لحسن الحظ ــ أثر يذكر ٠

وأبنــاء هــذا التيار يحمدون لثورة ٢٣ يولية أنهــا كشفت وجــه مصر العربى وأنهــا أعادتها الى قوميتها وأعادت اليها انتماءها الى وطنها الكبير الذى يمتد من المحيط الى الخليج ٠

أبناء هذا التيار مع ايمانهم بعمق الجذور الحضارية للشــــعب العربى فى مصر الضاربة فى أعماق الزمن البعيد على ضفاف وادى النيل الا أنهم يؤمنون أن هــذا الشعب ومنــذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا قد انصهر انصهارا كاملا فى الامة العربية وأصبح تاريخه جزءا من تاريخها وأصبحت ثقافته ولغته هى ثقافتها ولغتها وأصــبح مصيره مرتبطــا بمصيرها ارتباطا لا انفصام له ٠

وهؤلاء اذ يؤمنون بهذا الانتماء القومى لا يؤمنون به انتماءا عرقيا ولا انتماءا دينيا ، ذلك أنه لا يوجد فى عالم اليوم ما يقال له الأجناس الصافية ، كذلك ومن ناحيــة أخرى فان الاســلام وان كان هو دين الغالبية العظمى من أبنــاء هذه الأمة الا أن الذين يدينون بغير الاسلام هم جزء أصيل من هــذا الكيان العربى ولا شبهة عند هؤلاء ولا هؤلاء فى أن الاســلام بكل قيمه يمثل الجوهر وحجر الزاوية بالنسبة للمضمون القومى العربى ٠

وأبنـــاء هذا التيار يؤمنون بالاشتراكية طريقا حتميا للتقـــدم والتنمية والحيلولة دون استغلال الانسان للانسان • ولكن الاشتراكية عندهم ليست قالبا واحـــدا ثابتا ، وليست نتاجا ماركسيا خالصا وان تأثرت بالضرورة بالفكر الماركسى ، ولكن الاشتراكية وان التقى جوهرها على منع استغلال الانسان للانسان وأعلاء قيمة العمل المنتج فوق كل قيمة الا أنها بعد ذلك صور متعددة وطرق كثيرة لا بد وأن تتأثر بالظروف الموضوعية لكل أمة ولكل بيئة ، والاشـــتراكية فى الوطن العـــربى هى بالضرورة اشتراكية عربية بمعنى أنهـــا لابد متأثرة بخصائص هـــذه الأمة وبقيمها وبواقعها ، ولكن ذلك لا يعنى من ناحية أخرى أنهـــا اشتراكية مبتوتة الصلة بالتجارب الانسانية •

والاشتراكية عند هؤلاء ليست انتقاصامن الديموقراطية بل هى اضافة اليها • انهم ينكرون ويرفضون فكرة ديكتاتورية الطبقة ويؤمنون ويدعون الى ديموقراطية تظل الجميع ، وتحتها تورق كل الزهور وتختلف الآراء وتتعدد ، ولا يغلق الباب دون رأى حتى ولو كان رأى الأقلية مادامت تلك الأقلية فى النهـــاية تلتزم برأى الأغلبية الى أن تستطيع هى أن تصبح أغلبية •

ان أبنـــاء هذا التيـــار يؤمنون بما يمكن أن يقال له الاشتراكية الديموقراطية أو الديموقراطية الاشتراكية جنبا الى جنب مع ايمانهم بالبعد القومى الذى يتمثل فى انتمائهم الى أمتهم العربية •

أبنـــاء هذا التيار وهم ـــ فى تقديرى ـــ ليسوا بالقليلين وان كانوا مبعثرين بحكم طبيعة أوضاع العمل السياسى فى المرحلة الماضية لا بد وأن يلتقوا تحت منبر من هـــذه المنابر فالى أى المنابر يتجهون ؟

يقينا ليس اليمين هو منبرهم •

وان كان تصنيفهم أنهم فى الدار الآخرة ـــ فى يقينى ـــ من أهل اليمين • ويجب أن لا نخلط هنا بين الدين والمعنى السياسى لمصطلحى اليمين واليسار •

ويبقى أمام هؤلاء أن يختاروا موقعهم فى أحد المنبرين الآخرين : منبر الوسط ومنبر اليسار • وهم بالتعريف السابق قد يكونون على يسار الوسط أو على يمين اليسار •

ولكن هذا التيار اذ يريد أن يحدد موقعه لابد وأن يأخذ الحركة السياسية فى الوطن العربى كله فى اعتباره •

والذين يؤمنون بمثل ما يؤمن به أبناء هذا التيار وتربطهم ببعضهم الوشائج الفكرية يمثلون فى غالبية الوطن العربى تيارات اليسار التى تحمل رايات التقدم وتبشر بانتصار الجماهير وبحتمية الوحدة • وهكذا فان دراسة الخريطة السياسية فى الوطن العربى ورصد حركة القوى السياسية فيه قد يجعل أبناء هذا التيار فى هذا الجزء من انوطن العربى أقرب الى منبر اليسار منهم الى غيره من المنابر •

وقد يبدو أن ذلك كله سابق لأوانه اذ أن كثيرين عليهم أن ينتظروا حتى يروا فكر المنابر وبرامجها ليحددوا موقفهم منها •
ولكن قد يقال من ناحية أخرى ان فكر المنابر وبرامجها لا يمكن

أن تتحدد الا من خلال الالتقاء والحوار بين أصحاب الأفكار والاتجاهات •

وعلى أى حال فان الفترة المقلبلة التى لابد وأن تتبلور فيها المنابر لابد وأن تكون فترة حافلة بالحوار الخصب البناء •

وعلى أبناء التيار القومى أن يطرحوا فكرهم وأن يحددوا هويتهم وأن يختاروا لأنفسهم الطريق والمسار والمنبر الذى اليه ينضمون •

ولا يعقل أن ترتفع فى مصر اصوات كثيرة وأن يظل صوت هذا التيار الأصيل والذى هو فى نفس الوقت تيار المستقبل خافتا غير مسموع •

معنى التقدم الحضاري

ما الذى نعنيه عنــدما نقول ان هــذا الشعب متقــدم وأن ذلك الشعب متخلف ؟

أو بعبارة أخرى ما معنى التقدم وما معنى التخلف ؟

واذا كان التقدم هو بالضرورة نقيض التخلف فان البحث عن معنى واحــد منهما لابد وأن يوضح معنى النقيض الآخر .

ونحن هنا لا نريد أن نتحدث عن معنى التقدم مطلقا أو بغير وصف يحدده ويضبطه وانما نريد أن نتحدث عن معنى التقدم الحضــارى ، وهــذا يجعل الموضوع أكثر تركيبا وشــمولا .

ذلك أن التقدم قد يكون تقدما علميا ، وقد يكون تقدما اقتصاديا ، وقد يكون تقدما سياسيا ، وهــذه كلها صور من صور التقدم ، ولكن التقدم الحضــارى أعم من ذلك كله وأشمل اذ أنه يوشك أن يحتوى كل هــذه الصور جميعا ويزيد ، وهو يحتويها متفاعلة متداخلة فى ذات الوقت وليس قصاراه أن يجمع بينها صورا متراصة منفصلة أن جاز تصــور ذلك .

ومن هنا فان معيار التقدم الحضارى الذى نهتدى به الى معناه يبدو معيارا مركبا .

ذلك أننا لا نستطيع أن نكتفى بالمعيار الاقتصادى وحــده للحكم على وجود التقدم الحضارى اذ قد يوجد التقدم الاقتصادى والذى يقاس عادة بمتوسط دخل الفرد ـــ مع ادخال بعض العوامل الأخــرى عليــه كمتوسط استعمال الكهرباء ونوعية استعمالها فى الصــناعة أو فى مجرد الاستهلاك ومع ذلك لا يوجد بالضرورة تقدم حضارى .

وليس يخاف أن بعض البلاد فى الوطن العربى وفى غيره قفز دخل الفرد فيهـا قفزة بالغة الارتفاع مما يقطع بارتفاع المستوى الاقتصادى فى جانب من جوانبه ، ولكن ذلك الارتفاع وحـده لا يؤدى بالضرورة الى القول بوجود أو بعدم وجود تقدم حضارى مما يدعونا الى أن نقرر أن التقدم الحضـارى ليس مرتبطا بالضرورة بالتقدم الاقتصـادى أو بارتفاع متوسط دخل الفرد ، بمعنى أكثر تحديدا ـــ فقد يوجد ذلك المتوسط المرتفع فى الدخل ويوجد التقدم الحضارى أو لا يوجد ، ذلك أن المعنيين ليسا مترادفين •

وبالمقابل فان وجود بلد من البلاد فى ضائقة اقتصادية لا يعنى بالضرورة أن ذلك البلد متخلف حضاريا •

واذا كان هـذا هو الشأن بالنسبة للمعيار الاقتصادى فان الأمر يقترب من ذلك أيضا بالنسـبة للمعيار السـياسى أى المعيار المتعلق بنظام الحـكم •

فنظام الحكم فى الولايات المتحـدة الأمريكية يختلف فى كثير من التفاصيل عن نظام الحـكم فى المملكة المتحـدة ـــ وأن اتحدا فى الأساس وكونه الديموقراطية الكلاسيكية ـــ وهـذان النظامان بدورهما يختلفان اختلافا كليا عن نظام الحكم فى الاتحاد السوفيتى ، ومع ذلك فانه لا يمكن القول ان هـذا النظام بذاته أو أن ذاك النظام بذاته دليل على التقدم الحضارى أو على عكسه •

وحتى التقدم التكنولوجى لا يصلح بدوره معيارا وحيدا للقول بوجود التقدم الحضارى •

ذلك أنه لا شـبهة فى أن البون شاسع بين التقدم التكنولوجى فى الولايات المتحـدة الأمريكية وبين هـذا التقدم نفسه فى بلد كفرنسا أو كانجلترا ومع ذلك فانه من العسير أن يقال ترتيبا على ذلك أن الولايات المتحـدة الأمريكية تعتبر من الناحية الحضـارية أكثر تقدما من انجلترا أو من فرنسـا •

ويدفعنا ذلك الى أن نتساءل هل يوجد شعب من الشعوب — أيا كانت درجة تخلفه يمكن أن يقال عنه انه شعب غير حضارى ؟؟

قولا واحدا لست من الذين يرون هذا الرأى ، ذلك أننى لا أرى فارقا نوعيا بين شعب وشعب آخر من بنى الانسان وانما هو فارق فى الدرجة أو الكم • وأكثر القبائل تخلفا فى الغابات الأفريقية أو فى جنوب شرق آسيا لا يوجد بينها وبين امكانية التحضر سد منيع يفرض عليها التخلف دائما وابدا ، وانما هى ظروف موضوعية قضت بذلك التخلف وتتغير تلك الظروف فتتغير الأوضاع وينفتح الباب وتسير الشعوب خطوة خطوة فى مدارج التقدم والتحضر •

وهذا يعنى أن كل بنى الانسان قابلون للتحضر — مهما بلغت درجة تخلفهم حاليا — ويعنى على نحو أو على آخر ان كل الشعوب هى شعوب حضارية بالامكان ان لم تكن بالفعل ان جاز لنا أن نستعير تعبير المعلم الأول « أرسطو » •

ونعود من هذا الاستطراد الى تساؤلنا الأول عن المعيار الذى يمكن أن نقيس به التقدم الحضارى بالنسبة لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم أو دولة من الدولة •

وقد قلنا ان هذا المعيار لا يمكن أن يكون معيارا اقتصاديا فقط ولا معيارا متعلقا بشكل نظام الحكم فقط ، ولا معيارا متعلقا بالتقدم التكنولوجى وحده دون غيره ولكنه معيار يحتوى ذلك كله ويضيف اليه معانى تتصل بسلوك الانسان الفرد من ناحية وبقيمة الانسان الفرد من ناحية أخرى مع وعى بالحقيقة الاجتماعية التى لا يمكن للفرد أن يعيش بمعزل عنها •

فالانسان الفرد الذى يستبيح لنفسه أن يغتصب حق غيره أو حتى أن يخرق اشارة مرور أو يلقى ورقة فى طريق يسلك سلوكا غير متحضر ، فاذا شاع مثل هذا السلوك وأصبح شبه قاعدة عند

الغالبية من الناس وبالتالى لم يعتبر سلوكا مستهجنا فان المجتمع كله لا يمكن أن يعتبر مجتمعا متحضرا •

والمجتمع الذى يسمح لفرد أو قلة من أفراده أن تستحوذ على الخير كله أو أغلبه ويترك جماهير الناس أو أغلبيتهم يعانون من الحرمان لا يمكن أن يعد مجتمعا متحضرا •

والمجتمع الذى يتحول الأفراد فيه الى آلات خرساء ولا يكون فيه اعتبار الا للمجتمع أو بالادق لمن يدعون أنهم يعبرون عن المجتمع — وهو ما نطلق عليـــه المجتمعات الشمولية فى مقابل المجتمعات التى تقوم على أســـاس المذهب الفردى — هو بدوره لا يمكن أن يكون مجتمعا متحضرا •

ونعنى بالمجتمع المتحضر هنا المجتمع المتقدم حضاريا •

اذن ما هو المجتمع الذى يصدق عليـــه فى تقديرنا وصف التقـــدم الحضـــارى •

المعيار الشـــامل عندى الذى يمكن أن يقاس به هـــذا الأمر هو معيار يتعلق بالشعور بالأمن ، والشعور بالأمن معنى واسع وكبير •

المجتمع المتقدم حضاريا هو ذلك المجتمع الذى يوفر أوسع مشاعر الأمن للغالبية العظمى من مواطنيه •

والشـــعور بالأمن هنا شـــعور متعدد المصادر متعدد الجوانب •

والحقيقة أن ظاهرة السلطة — ومن ثم ظاهرة الدولة — فـــى المجتمع الانسانى ارتبطت أساسا بالمقدرة على تحقيق ذلك الشـــعور بالأمن لدى الناس •

وفى الماضى كان الناس يخافون من مخاطر الطبيعة وكواسر الحيوان والتعرض للجوع ، وكان سعيهم كله من أجل تحقيق الشعور بالأمن فى مواجهة تلك المخاوف •

وفى مسيرة الانسانية الطويلة كانت مصادر الخوف، تتنوع وتتعدد وكانت حاجة الانســـان الى الأمن قائمة متجددة وكان المبرر الأساسى لوجود سلطة الدولة هو اشـــباع ذلك الشعور وتحقيقه ادى الغالبية من الناس : الشعور بالأمن •

وبقدر ما تتسع مســاحة الشعور بالأمن وتضيق مســاحة الشعور بالخوف بقدر ما يتحقق التقدم الحضارى فى مجتمع من المجتمعات •

والحاجة الى الشـــعور بالأمن متعددة المصادر متعددة الصور فى وقتنا الراهن •

فالانســـان فى حاجة الى أن يشعر بالأمن على لقمة عيشه فى صورة توفير مســـتوى اقتصادى معين ، وفى حاجة الى أن يشعر بالأمن على صـــحته فى صورة توفير الرعاية الطبية ، وفى حاجة الى أن يشـــعر بالأمن على حقه فى أن يبدى رأيه وأن يعبر عن نفسه فى مواجهة السلطة وفى حاجة الى أن يشعر بالأمن فى مواجهة غيره من الأفراد بان يحترموا حقوقه وحريته الشخصية وأن لا يتدخلوا فيما لا يعنيهم من شـــئون غيرهم وكلما زاد ذلك الاحساس بالامن لدى المجاميع الواســـعة من أفراد الشعب من ناحية وكلما زادت مساحة الأمن المتحققة فى صوره المتعددة من ناحية أخرى كلما زاد التقدم الحضارى فى ذلك المجتمع •

الشعور بالأمن بمعناه الواسع وبصوره المتعددة والمتطورة هو فى رأيى خير معيار يقاس به التقدم الحضارى •

وعلى ذلك فاذا وجدنا شعبا من الشعوب أو بلدا من البلاد يتحقق للفرد فيه متوسط مرتفع من الدخل ولكنه لا يستطيع أن يأمن على نفسه اذا قال رأيه فى مواجهة الســـلطة هنا لا نستطيع أن نقول اننا فى مجتمع متقدم حضاريا •

واذا وجدنا دولة من الدول يأمن الانسان فيها على كلمة يقولها فى مواجهة أصحاب السلطان ولكنه يعيش مهددا بالبطالة والعوز ولا يجد

لنفسه سريرا فى مستشفى اذا داهمه المرض هنا أيضا لا نستطيع أن نقول اننا فى مجتمع متقدم حضاريا •

والأمور نسبية والأمور درجات بعضها فوق بعض •

وهكذا نستطيع أن نقول ان ايا من هذه المعايير — على أهميته — لا يمكن أن نركن اليه « وحده » لنقيس به مدى التقدم الحضارى فى بلد من البلاد وان التقدم الحضارى لابد وأن يقاس بمعيار فيه نوع من الشمول والاحاطة •

فما هو ذلك المعيار وكيف نهتدى اليه ؟

قد يحتاج الأمر الى نوع آخر من الاستطراد قبل الحديث المباشر عن ذلك المعيار أو ما نتصور انه المعيار السليم •

وقد يجمل بنا هنا أن نطرح تساؤلا يدخل فى صميم الموضوع وقد يقربنا خطوات من المعيار الذى نبحث عنه ، هذا التساؤل هو :

ما الفارق بين الشعوب الحضارية والشعوب المتقدمة حضاريا ؟ واطلاق التساؤل على هذا النحو يعنى أننا نفرق بين كون شعب من الشعوب يعد شعبا حضاريا من ناحية وكون شعب آخر يعد شعبا متقدما حضاريا من ناحية أخرى •

وهذه التفرقة صحيحة فى تقديرى فما الذى تعنيه تلك التفرقة ؟

الشعب العربى شعب حضارى بيقين • ذلك لأن الشعب العربى انتج حضارات انسانية عظيمة كانت بمثابة خطوات واسعة على طريق التقدم الانسانى ، حقيقة ذبلت تلك الحضارات واندثرت نتيجة عوامل كثيرة ولكن الشعب الذى يفرز حضارة أو عدة حضارات ويعيش فى ظلها قرونا ويضىء بها الطريق أمام البشرية ردحا من الزمن هو بالضرورة شعب حضارى وان رأى البعض انه فى هذه المرحلة أو تلك لا يمكن اعتباره متقدما حضاريا •

الشعب الحضارى اذن هو الشعب الذى استطاع فى مرحلة من مراحل تطوره أن يفرز حضارة معينة وأن يعيش فى ظل تلك الحضارة وأن يشع على غيره اشعاعا حضاريا •

وقد يكون الشعب حضاريا بمعنى آخر • قد يكون الشعب حضاريا بمعنى أنه قابل للتحضر حتى وان لم يسبق له أن ينتج حضارة معينة أو أن يعيش فى ظل نوع من التقدم الحضارى •

ولكن الذى لا شك فيه عندى أن خير معيار لقياس التقدم الحضارى هو ذلك المعيار الذى يستند الى مدى الشعور بالامن واتساع ذلك المدى وشموله وتحقق ذلك بالنسبة للجماهير الواسعة من الناس •

البنيان الإجتماعى والإحساس بالعدل

لا يمكن أن يقوم بنيان اجتماعى سليم الا اذا كان يستند الى قاعدة صلبة من الاحساس بالعدل ، وبالمقابل انه ليس أدعى :لى انهيار أى بينان اجتماعى قدر احساس الناس فى قاعدة ذلك البنيان بالظلم ٠

والاحساس بالظلم شىء غير الظلم نفسه ، فقد يوجد مظلوم لا يحس بظلمه ، وقد يوجد الاحساس بالظلم مبنيا على غير أســاس سليم من الواقع ، ولكن الاحساس بالظلم اذا شاع بين جماهير الناس العريضة فانه لابد وأن يكون احساسا يستند الى ما يبرره لأنه عندئذ سيكون تعبيرا عن شعور عام أو شــبه عام ٠

ومثل هذا الاحساس عندما يوجد يصبح نذير خطر لا يمكن التنبؤ بمداه ولا بما يمكن أن يؤدى اليه ٠

يدفعنى الى هــذا الحديث ما تردد كثيرا فى الأيام الأخيرة سواء فى مجلس الشعب أو فى اللجنــة المركزية أو على صفحات الجرائد أو فى مجالس الناس الخاصة من أن ثمة فئة « محظوظة » سماها البعض « بالقطط السمان » وســماها البعض بغير ذلك من أســماء ، وأن تلك الفئة أثرت ثراء سريعا فى وقت يئن فيه الاقتصــاد المصرى أنينا موجعا من كثرة المشاكل المتراكمة ، وتعانى فيه الجماهير الكادحة ــ وهى الغالبية العظمى من أبنــاء هــذا الشعب الصامد ــ من الغلاء الرهيب الذى يوشك أن يطحنها طحنا الى جوار ما تعانيه من ارهاق فاق حدود كل وصف فى ســائر مرافق الخدمات ٠

والثراء فى حد ذاته ليس جرما وليس بالشىء الذى يعيب صاحبه وليس بمؤد بالضرورة الى أن يشيع حوله الاحساس بالظلم لدى من لم يلحقهم مثل ذلك الثراء ٠

ان حظوظ الناس متفاوتة فى الصحة وفى الذكاء وفى الجمال وليس ما يمنع من أن تتفاوت أيضا فى قدر المال .

ولكن الثراء مسئولية ، كما أن الذكاء مسئولية وكما أن العلم مسئولية .

والمسئولية عن الثراء تتمثل فى أمرين اثنين واضحين . أمر سابق على الثراء وأمر لاحق عليه .

أما الأمر السابق فهو كيف تحقق ذلك الثراء ؟

هل كان مصدره عمل منتج خلاق أضاف الى الاقتصاد القومى اضافة واضحة وأفاد صاحبه الذى أقامه وأداره وبذل الجهد فيه وأثرى من وراء ذلك الجهد ؟ اذا كان ذلك كذلك فان مثل هذا الشخص لا يمكن أن يحظى الا باحترام الناس وتقدير المجتمع .

أما اذا كان ذلك الثراء قد « هبط » فجأة دون مقدمات ولم يكن الا وليد صلات واتصالات وقرب أو قرابة من هذا وذاك ، اذا كان ذلك الثراء الفاحش نتيجة ما يقال له العمولات أو المضاربات أو شراء الاراضى حيث يتوقع للاراضى أن يزداد سعرها أضعافا مضاعفة وأن يحيط بذلك كله ما يدعو الى الريبة والشبهة واستغلال النفوذ ، فهنا تجب الوقفة وهنا تحق المحاسبة ، ومثل هذا الثراء السهل السريع لا بد وأن يشيع حوله جوا من الاحساس بانعدام المعيار الذى يعدل بين الناس .

ان الثراء فى ذاته ليس جرما ولكن سبب الثراء هو الذى قد يكون كذلك .

والثراء واقعة اجتماعية ومن حق المجتمع أن يعرف مصادر ثروات أفراده خاصة اذا زادت تلك الثروات عن الحدود المعقولة وخاصة اذا كان المجتمع يمر بضائقة اقتصادية تعصره عصرا .

هـذا عن الأمر السـابق وهو معرفة سبب الثراء ومصـدره : مشروعا أم غير مشروع •

أما عن الأمر اللاحق فيتمثل فى مسئولية صاحب الثروة عن ثروته •

والمسئولية الأساسية تتمثل فى أن ينمى صاحب الثروة الثروة القومية تنمية حقيقية من ناحية وأن يدفع حق المجتمع المتمثل فى الضرائب وغيرها من الالتزامات القانونية الأخرى بغير محاولة للتهرب أو التضليل •

كذلك فان البعد عن مظاهر الاسراف الاستهلاكى والبذخ المثير هى بدورها مسئولية اجتماعية خطيرة ، ذلك أن مثـل هـذا الاسراف وذلك البذخ هو البؤرة التى تشيع حولها كل ألوان المرارة والاحساس بالظلم •

أن الثروة مسـئولية ، كما أن العلم مسـئولية وكما أن الحياة نفسها مسـئولية ضخمة •

وأولئك الذين لا يعرفون حدود مسئوليتهم لابد وأن يعرضوا أنفسـهم للمساءلة ، والمساءلة قد تكون هينة رحيمة أحيانا ولكن من الغباء أن نشيع حولنا الاحساس بالظلم الى المدى الذى يشعل نـارا تقضى على الاخضر واليابس ونتصور أننا سنكون عن تلك النـار بمنجاة •

لابد وأن تمتد أنظارنا الى أكثر من مواقع أقدامنا ، ولابد أن نعرف أن الواقع متغير غير ثابت وأن للتاريخ حركته وأن حركته تحكمها قوانين ، وأن قوانين حركة التاريخ لا تهزل ولا تعبث •

واذا كان الكلام قد كثر فى الأيام الأخيرة حول هـذه الظاهرة فانها تقتضى حسما والحسم لا يكون بالكلام أو بالمقالات التى لا يملك مثلنا غيرها وانما يكون « بالفعل » •

ولا بد أن نبدأ من «فوق» ومحمد صلوات اللهعليهعندما قال مامعناه لقد فشل الذين قبلكم لأنهم كانوا اذا سرق الغنى تركوه واذا سرق

الفقير أقاموا عليــه الحد ، واللــه لو أن فاطمة بنت محمــد سرقت لقطعت يدها • وصــدق رسول اللــه • وليكن لنــا فى رسول اللــه أســوة حسنة •

ويتصور بعض الواهمين أن جــو الحرية يتيح لهم حماية مصطنعة ويباعد بينهم وبين القــانون • ان ســيادة القــانون تصبح عبثا ان جعلت يده قاصرة عن أن تنال أصــحاب الثروة أو الجاه أو الحظوة على اختلاف صور ذلك كله وأســبابه • ان القــانون هو ميزان العــدل فى المجتمــع وبغير عدل اجتماعى لا يمكن أن يســتقيم لأى مجتمــع أى بنيــان •

عكس ذلك هو الصحيح ، وفى تقديرى ان جو الحرية هو وحده القادر على كشف هؤلاء وعلى رفع الحماية الموهومة عنهم ، ان الحرية هى وحدها التى ستكسر البقية من حاجز الخوف وعندئذ سيستطيع الشعب أن يضع كل أحــد فى موضعه الصحيح •

وقضــية أخرى تثار وتجوز على غير العارفين •

يقول البعض لا تخيفوا أصحاب الملايين من المصريين فانكم ان اخفتوهم اخفتم أصحاب رؤوس الأموال من الأجانب •

ومثل هذا الكلام مغالطة • لا أحد يخيف أحدا الآن ، انمــــا هى الموازين القسط التى يجب أن ترفع ورفعها لا يخيف الشرفاء •

لا أحد من المستثمرين الاجانب الجادين يجهل أن «الثروة مسئولية» وأن المسئولية تعنى المحاسبة فى جانب من جوانبها مادامت ضمانات المحاسبة قائمة غير منقوصة •

بل أنى أذهب الى أن هذا الجو ــ جو العمولات والمضاربات والثراء السريع بغير جهد ــ هو جو لايشجع رؤوس الأموال الجادة ويجعلها تتردد عن الاقدام لانها تدرك تماما أن مثل هذا الجو بما يشيعه من احســاس

بالظلم لدى الجماهير الواسعة لا يمكن أن يضمن لها الطمأنينة والاستقرار .

ذلك على حين أن جو العمل الجاد المنتج الذى تسهم فيه الرأسمالية الوطنية هو جو صحى يساعد رؤوس الأموال الأجنبية على الاقدام ، ليت أثرياءنا يكونون هم الطليعة فى دفع عجلة الاقتصاد المصرى الى الأمام وليتهم يدركون أن الحماية المتاحة لهم ولأموالهم يجب أن تحفزهم على مضاعفة الجهود من أجل مصلحتهم أولا ثم من أجل مصلحة الملايين بعد ذلك ، أما أن يغضوا أبصارهم عن كل شىء الا ثراءهم وبذخهم واثارتهم لمشاعر السخط فانهم بذلك يخطئون أشد الخطأ فى حق أنفسهم أولا ثم فى حق مصر بعد ذلك .

ترى هل ستستطيع الرأسمالية المصرية الجديدة أن تفرز لنا رجالا من أمثال طلعت حرب ولكنهم يعيشون فى الربع الأخير من القرن العشرين ؟

مثل هؤلاء الرجال لن يشيعوا حولهم الاحساس بالظلم وانما سيشيعون حولهم جوا من الانتاج وما يؤدى اليه الانتاج من رخاء وما يؤدى اليه الرخاء من طمأنينة .

واذا كنت قد استطردت فى الحديث عن ظاهرة « الثراء المفاجىء » فانها ليست وحدها التى تؤدى الى اختلال ميزان العدل ، ذلك أن كثيرا من الظواهر فى كثير من الأماكن تؤدى الى ذات الشىء .

ان احساس مواطن عادى أنه لن يستطيع أن ينال حقه الا اذا لجأ الى هذا الشخص أو ذاك هو احساس مرير بعدم وجود العدل ، وان احساس مواطن أن مواطنا آخر يتقدمه لا لميزة موضوعية فيه ولكن لميزة شخصية هو احساس مرير أيضا ... ولا شىء يستطيع أن يقوض بنيان المجتمعات قدر ذلك الاحساس المرير بغياب العدل .

قيم اجتماعية مقلوبة

كل مجتمع من المجتمعات لابد وأن تكون له مجموعة من القيم تحكم سلوك الأفراد والجماعات فيه ، وهذه المجموعة من القيم تحدد الى مدى بعيد شكل ذلك المجتمع وتحدد مساره وتحدد درجته من التحضر والرقى •

ومجموعة القيم فى المجتمع الزراعى تختلف عنها فى المجتمع الصناعى ، كذلك فان قيم المجتمع القبلى غير قيم المجتمع الذى تأكدت فيه سلطة الدولة وعمقت جذورها ، ولا شبهة أيضا أن قيم المجتمعات الآخذة فى النمو تختلف عن تلك القيم فى المجتمعات التى حققت شأوا بعيدا فى التقدم •

والقيم الاجتماعية بطبيعتها متطورة وان كان تطورها يبدو بطيئا غير ملموس فى كثير من الحالات ، والأصل أن تلك القيم تتطور نحو الأفضل الا أن هذا الأصل ترد عليه بعض الاستثناءات ذلك أن المجتمعات فى أعقاب الحروب أو فى ظل الازمات الاقتصادية الطاحنة يختل فيها سلم القيم اختلالا لا يتفق مع ما كان يجب أن يكون عليه منطق التطور •

ولست أريد هنا أن أعالج موضوع القيم الاجتماعية بصفة عامة ومجردة وانما أريد وبشكل محدد أن أعالج القيم الاجتماعية عندنا ، ذلك أننى أتصور أننا نمر بفترة تحتاج الى وقفة والى نوع من التحليل الهادىء العميق نصارح فيه أنفسنا علنا نتيجة التحليل والمصارحة أن نضع أيدينا على بعض العلل وأن نجد لها بعض الدواء •

والمجتمع العربى فى مصر هو مجتمع يتحول من الزراعة الى الصناعة بدليل أن أكثر من أربعين فى المائة من السكان يقيمون الآن فى المدن وأن أكثر من أربعين فى المائة من القوى العاملة تعمل فى الصناعة أو فى مرافق الخدمات •

كذلك فان المجتمع العربى فى مصر لا يصدق عليه وصف :المجتمع المتخلف ، ذلك أنه حاول الخروج من التخلف ونجح ثم انكفأ فى الثلث الاول من القرن الماضى ثم حاول مرة أخرى قبيل الاحتلال البريطانى ثم حاول محاولة قدر لها نوع من الاستمرار البطىء بعد ثورة ١٩ وحتى الآن • وفى مصر « كادر » من المثقفين والفنيين يندر أن نجد له نظيرا فى أى بلد آخر من بلدان العالم الثالث • وفى مصر أزمة اقتصادية ــ نرجو أن تكون عارضة ــ ولكن يزيد من حدتها ذلك الانفجار السكانى الرهيب الذى لا تقابله حتى الآن وفرة فى الموارد الطبيعية •

والى جوار هذا كله فان المجتمع المصرى من أقدم المجتمعات الانسانية التى عرفت ظاهرة الدولة ووجدت فيها سلطة مركزية تكاد تسيطر على كل شىء من أقصى البلاد الى أقصاها وهذا يعنى أن المجتمع المصرى لا يمكن أن يوصف بأنه مجتمع قبلى ، ومع ذلك فان الروابط العائلية والروابط بين أبناء البلد الواحد والاقليم الواحد هى روابط قوية واضحة ، كذلك فان ظاهرة « الشللية » هى من الظواهر التى تحكم كثيرا من أمورنا مهما حاولنا انكار ذلك وكل ذلك مما يلقى علينا بعض الظلال القبلية رغم عمق جذور الدولة والسلطة المركزية •

كذلك فان الدين عميق الجذور فى الحياة المصرية ، ومن ناحية أخرى فاننا لا نستطيع أن نتجاهل أن ثمة مروقا عن الدين فى بعض شرائح المجتمع خاصة فى المدن الكبرى ، بل أن الريف نفسه رغم التمسك الظاهرى بالدين فان كثيرا من الظواهر تحمل على الاعتقاد أن ثمة تناقضا بين المظهر المعلن والسلوك الذى يصطنعه البعض فى حياتهم •

وهذا كله يجعل بنية المجتمع العربى فى مصر بنية مركبة شديدة التعقيد •

ولابد لهذا كله أن يلقى آثاره الواضحة على قيمنا الاجتماعية •

وأنا أعرف ــ وكل منصف يعرف ــ أن لدينا بعض القيم الاجتماعية السليمة والعريقة فنحن شعب من أكثر الشعوب صبرا على المكاره ،

ونحن شعب من أكثر الشعوب التى تتجلى فيها صفة الاستمرار ، ونحن شعب تبرز الازمات صلابة عوده وقـوة تحمله . ولكنى لا أكتب هـذا المقال لأتحدث عن ذلك وانمـا لأنبه ــ وهـذا هو واجب كل من يحس بالمسئولية نحو هذا البلد ــ الى بعض القيم الاجتماعية المقلوبة ــ أو السلبية ــ التى تسود بين قطاعات منا هذه الأيام .

ولعل أخطر هـذه القيم وأشـدها فتكا تلك التى ترى فى الكسب السريع ــ مهما كان مصدره ووسيلته ــ أمرا يستحق الاكبار والاعجاب، وقد تفشت تلك القيمة للأسف الشديد حتى أصبح هدف شريحة كبيرة من الناس هو تحقيق أقصى ما يمكن من ربح فى أقصر ما يمكن من وقت وبأى وسيلة مرذولة أو غير مرذولة وما أكثر ما تكون الوسيلة مرذولة بل وغير مشروعة .

وهذه الشريحة ــ وهنا مكمن الخطر ــ لا ينظر اليها بعين الريبة والاستهجان وانما ينظر اليها من كثيرين بعين الاعجاب والانبهار ، ومثل هذه النظرة تؤدى الى تكوين قيمة اجتماعية خطيرة ومدمرة تعطى ظهرها للقيمة السليمة التى مبناها العمل والكدح والانتاج لتعلى قيمة تقـوم على النهب والخطف والثراء السريع بأى ثمن وأى وسيلة .

كذلك فان من القيم الاجتماعية المقلوبة ــ أو السلبية ــ التى تجد لها مكانا فى مجتمعنا اليوم ظاهرة « اللامبالاة » فما أكثر ما تسمع عبارة « وأنا مالى » أو « يا سيدى » أو « يا عم سيبك » أو ما الى ذلك من عبارات تؤدى الى ما نسميه بالتسيب والاستهتار وأخذ الأمور بغير ما تستحق من جد واهتمام .

وهذه القيمة السلبية تؤدى ــ اذا تفاقمت ــ الى تحلل فى كل شىء والى ضياع ليس بعده ضياع .و هو وضع لن يعود على أولئك الذين لا يبالون وحدهم وانمـا سيعود على المجتمـع كله بالخسران المبين والعياذ باللــه . ومن الظواهر الخطيرة الأخرى التى نلمسها على كثير

من المستويات — ومن بينها مستويات صنع القــرار — ظاهرة الأخــذ بالحلول الوسط ، تلك الحلول غير الحاسمة التى نتصور أحيانا أنهــا ترضى الجميع على حين أنها فى حقيقة الحال لا ترضى أحــدا ولا تحل أشكالا ولا تحسم أمرا • ان الحلول الوسط تبدو فى كثير من الأحيان وكأنها مجرد تلفيق أو نوع من للف والدوران حول المشــاكل بدلا من مواجهتها بحزم وصراحة •

وأخطر ما فى ظاهرة الحلول الوسط أنها تجعل صاحبها باهت اللون غير محدد الهوية ولا واضح الاتجاه ولا يمكن معه التنبؤ بما ستكون عليــه خطوته التاليه ســواء فى الجليل أو البسيط من الأمور •

ولست أريد أن استطرد أكثر من ذلك فى عرض القيم الاجتماعية السلبية أو المقلوبة التى بدأت تظهر على ســطح المجتمع عندنا والتى اذا تركت تستشرى فان آثارها المخربة تبدو بعيدة المدى ، وكفانى تلك القيم السلبية الأربع التى أشرت اليها والتى أتصور أنها من الخطورة بحيث يجب أن تواجه بكل ما نملك من قوة وبكل ما فى مجتمعنا من أصالة وايجابية • واعتقد أن هــذه المواجهة يجب أن ترتكز على أمور ثلاث أساسية هى :

أولا : القدوة الحسنة ، والقدوة حتى تكون مؤثرة يجب أن تأتى من أعلا • ان كل مســئول فى موقعه وكل اســتاذ فى مدرجه أو فى فصله وكل صاحب سلطة — خاصة فى المستويات العليا يجب أن يطالب نفسه بأن يلتزم جادة التصرف وأن يأخذ نفسه وأفعاله وأقواله مأخذ الجد وأن لا يبقى قيمة فوق قيمة العمل المنتج وأن لا يعيش وكل ما يعنيه هو مظاهر البذخ والثراء ســواء فى مكتبه أو فى بيته • ان مسئولا كبيرا ينفق على تأثيث مكتبه بضعة آلاف من الجنيهات فى وقت تحتاج فيه مصلحته الى بضع مئات من تلك الجنيهات لتشترى بعض الآلات الحديثة التى تساعد على سرعة انجاز العمل هو مسئول لا يعرف واجبه ولا يعرف حدود مسئوليته وقس على ذلك كثيرا من التصرفات •

ثانيا : الرقابة الشـــعبية الحقيقية والمستمرة وذلك في كل مواقع الانتاج والخدمات وعلى كل مستوى سواء كان مركزيا أو محليا • ان المـــال مال الشعب وان المستقبل مستقبله ومن حق الشعب، أن يراقب كل العاملين لديه وأن يقول رأيه فى تصرفاتهم وأن يحاسبهم •

ثالثا : الردع السريع فى كل ما يتعلق بالعدوان أو بالاهمال بالنسبة للمال العام أو المرافق العـــامة • ولابد هنا من اعادة النظـــر فى قوانين التأديب والحماية من الفصل ، ان الحماية وضعت لتحمى من الفصل التعسفى فاذا بها تمتد لتصبح حماية شـــبه مطلقة الأمر الذى لم يخطر فى بال أحد • وانى اذ أدعو الى الردع السريع فى كل ما يمس المصلحة العـــامة لا أدعو اطلاقا الى اهـــدار أى ضـــمان من ضمانات الحـــرية وما أظن أن ثمة تناقضا حقيقيا بين الأمرين • ان الأمر لم يعد يحتمل الصبر ولا المماطلة وأنصاف الحلول •

انها مصر تلك التى يجب أن ننقذها لننقذ أنفســـنا أجمعين •

دولة المؤسسات بين السلبية والايجابية

فى ظل سيادة القانون يمكن لدولة المؤسسات أن تقوم • وقد كتبت من قبل عن معنى سيادة القانون وأحاول اليوم أن أتحدث عن معنى « دولة المؤسسات » وعن ارتباط ذلك بسيادة القانون •

والحقيقة أن الذى يدفعنى الى الكتابة عن هذه الموضوعات التى قد تبدو « فنية » أو متخصصة بعض الشىء أن الحديث عنها أصبح يتردد على كل لسان وأصبحت عبارة سيادة القانون أو عبارة دولة المؤسسات من العبارات المتكررة نقرؤها أحيانا ونسمعها أحيانا وننطقها أحيانا أخرى ويتعين علينا أن نكون من الذين يتحدثون لغة مشتركة وأن يكون معنى هذه العبارة واضحا ومحددا لدينا جميعا •

ما الذى تعنيه عبارة « دولة المؤسسات »

تعنى هذه العبارة شيئا سلبيا وتعنى شيئا ايجابيا فى ذات الوقت •

أما الشىء السلبى فهو ان دولة المؤسسات ليست دولة أفراد بمعنى أن الحكم فيها ليس لارادة الأفراد أيا كان موقع هؤلاء الأفراد وان الارادات الفردية عندما تتحرك وتتصرف انما تتحرك وتتصرف فى اطار رسمه لها نظام الحكم متمثلا فى الدستور أو فى القانون الأساسى •

دولة المؤسسات اذن ليست دولة أفراد وانما الأفراد فيها يؤدون دورا له حدود واضحة مرسومة •

ومن ناحية أخرى ـ ايجابية ـ فان المؤسسة السياسية عبارة عن كيان معنوى دائم ومستمر لا ينتهى بانتهاء حياة أو أدوار الأفراد الذين يمثلون المؤسسة أو يتحدثون بأسمها فى الاطار الذى يحدده القانون •

والدولة هى مؤسسة المؤسسات بمعنى أن المؤسسات السياسية انما توجد داخل الدولة وفى نطاقها • وكون الدولة مؤسسة يعنى انهـا كيان قائم ومستمر بصرف النظر عن نوعية نظام الحكم القائم فيهـا وبصرف النظر عن أشخاص الحاكمين ، فقد يتغير نظام الحكم فى الدولة من ملكى الى جمهورى وقد يموت ملك أو رئيس جمهورية ويحل غيره محله ولكن الدولة نفسـها باعتبارها مؤسسة تظل قائمة وتظل شخصيتها القانونية مستمرة وتظل التزاماتها فى مواجهة العـالم الخارجى هى هى بصرف النظر عما حـدث من تغيير فى نظام الحـكم أو فى اشـخاص الحاكمين •

والحقيقة أن هـذه الفكرة تبدو حديثة نسبيا ولا يتجاوز عمرها فى كثير من الدول القائمة ـ حتى الأوربية منها ـ أكثر من قرنين من الزمان ، ويكفى أن نتذكر عبارة لويس الرابع عشر فى فرنسـا ـ قبل ثورتها الكبرى ـ عندما قال « أنا الدولة والدولة أنا » لندرك أن فكرة الدولة المؤسسة لم تكن قائمة آنذاك وأنها لم تستقر فعلا فى الفكر وفى الواقع السياسى الا بعد الثورة الفرنسية •

ومن القصص الطريفة فى هـذا الشأن أن أحـد الملوك العرب فى بدء تأسيس دولته استقدم خبيرا فى الشئون المـالية لينظم أمور الميزانية فلما انتهى ذلك الخبير من عمله وعرض تقريره على الملك انزعج الرجل لأنه وجد أن تنظيم مالية الدولة يقضى بأن يكون له مخصصات لا يستطيع أن يتجاوزها وأن ميزانية الدولة لا يجوز التصرف فيهـا الا وفقـا لاجراءات مالية معينة الأمر الذى يتفق مع فكرة المؤسسة ولكنه لم يكن يتفق مع تفكير ذلك الحاكم فى ذلك الوقت •

والواقع أن استقلال مالية الدولة عن مالية الحاكم واعتبار أن للحاكم ذمة مالية منفصلة خاصـة به لا تختلط بميزانية الدولة وأن الحاكم اذا كان يستطيع أن يتصرف فى أمواله الخاصـة كما يشاء الا أنه بالنسـبة لميزانية الدولة أو للمال العـام بصفة عامة لا يستطيع أن يتصرف الا وفقـا للأوضاع والاجراءات القانونية والدسـتورية ـ

هــذه القضية كانت من أهم القضايا التى أدت الى فكرة المؤسسات السياسية والدستورية ، ذلك أنه فى المــاضى كانت أموال الدولة تختلط بأموال الحاكم وكان الحاكم يستطيع أن يهب من يشاء مالا ، وأن يقطع من يشاء أرضا ، وأن يمنح هــذا ويحرم ذاك وفقــا لهواه ومحض رغبته •

ومن حقنا فى مصر أن نفخر بأن فكرة الدولة المؤسسة قديمة قدما موغلا — وأن اعترى تطورها كثير من الاضطراب فى بعض الفترات •

واذا كانت الدولة هى مؤسسة المؤسسات فان فى داخلها يوجد العديد من المؤسسات الدستورية وان تفاوتت فىأهميتها •

فعندنا مثلا فى بلدنا يمكن أن نقول أن رئاسة الجمهورية ومجلس الشعب والحكومة بمعنى الســلطة التنفيذية والقضاء والقوات المسلحة والمجالس القوميـــة المتخصصة كلها مؤسسات دســتورية ، وهــذه المؤسسات ليست جزرا منفصلة عن بعضها وانما هى مؤسسات بينها جسور عديدة وقد يشترك بعضها مع البعض الآخر فى بعض الاختصاصات ذلك كله وفقا لمــا يحدده ويرسمه الدستور •

ولا يتسع هــذا المقال لكى نتكلم عن كل مؤ سسة من هــذه المؤسسات ولا حتى عن بعضها بشىء من التفصيل ويكفى لكى نوضح فكرة المؤسسة الدستورية أن نضرب بعض الأمثلة •

خذ مثلا رئاسة الجمهورية وعلى رأســها يأتى رئيس الجمهورية وهو رئيس الدولة ، فهنا نجد أنفســنا فى مواجهة مؤسسة دستورية لهــا صــفة الاستمرار والدوام ورئيس الجمهورية على قمة هــذه المؤسسة وعلى قمة الدولة كلهــا يؤدى دورا خطيرا رســمه وحدده الدستور ، فهو الذى يسهر على تأكيد ســيادة الشعب وعلى احترام الدستور وسيادة القانون وحماية الوحدة الوطنية والمكاسب الاشتراكية

ويرعى الحدود بين السلطات لضمان تأدية دورها فى العمل الوطنى (المادة ٧٣ من الدستور) •

والقانون هو الذى يحدد مرتب رئيس الجمهورية ولا يجوز أن يدخل طوال مدة رئاسته مع الدولة فى علاقات مالية كما لا يجوز له أن يتولى أى عمل آخر يدر عليه دخلا ما •

وقد تولى الدستور تفصيل مهام رئيس الجمهورية سواء فى المجال التشريعى أو التنفيذى أو غير ذلك من المجالات •

وقد تولى الدستور أيضا رسم الطريقة التى يتم بها اختيار رئيس الجمهورية والطريقة التى يتم بها شغل المنصب عند خلوه فجأة لسبب من الأسباب •

ومن كل هذا يبدو جليا فكرة الدوام والاستمرار بالنسبة لهذه المؤسسة الدستورية التى ينظر اليها باعتبارها مؤسسة وأن اختلطت فى الظاهر بشخص رئيس الجمهورية الا أنها من الناحية الدستورية مؤسسة لها كيانها ولها نظامها ولها حدودها ويأتى على رأسها شخص معين من أبناء مصر ليؤدى ذلك الدور الخطير وليحمل تلك المسئولية الكبرى : مسئولية رئيس الجمهورية •

واذا انتقلنا بعد ذلك الى السلطة التشريعية فاننا سنجد المؤسسة القائمة على تلك الوظيفة ــ الوظيفة التشريعية ــ تتمثل فى مجلس الشعب • وللمجلس رئيس ووكيلان وأعضاء وله جهاز فنى وادارى يعاونه وله ميزانيته الخاصة ومن ذلك كله تقوم تلك المؤسسة بالدور الذى رسمه لها الدستور والذى يتمثل فى عملين أساسيين : أولهما : العملية التشريعية ، وثانيهما رقابة السلطة التنفيذية ــ من ناحية ومعاونتها على الاحساس بنبض الجماهير ورغباتها من ناحية أخرى • وقد فصل الدستور ذلك كله فى كثير من مواده •

والســلطة التشريعية باعتبارها مؤسسة دستورية قائمة ومستمرة وان تغير أعضــاء مجلس الشعب ســواء فى ذلك رئيس المجلس أو وكيلاه أو أعضاؤه • ان المؤسسة هى كيان قانونى قائم له شــخصيته المعنوية ، تلك الشخصية التى لا ترتبط بعمرو أو يزيد وانما تســتمد وجودها وكيانها من الدستور نفســه •

ومثل هــذا يمكن أن يقال عن بقية مؤسسات الدولة •

وهكذا تبدو الصلة جلية واضحة بين مبدأ ســيادة القانون وفكرة دوله المؤسسات ، ذلك أن دوله المؤسسات هى نتيجه من نتائج مبدأ ســيادة القانون ، يوضح ذلك ويؤكده انه فى ظل الحــكم الفردى حيث لا يكون للقانون ســياده وحيث تكون ارادة الفرد الحاكم أو الافراد الحاكمين هى المرجع والفيصل فان فكرة المؤسسة الدستورية لا يمكن ان تقوم ولا يمكن ان يكون لها دور واضح •

ونحن الآن فى بلدنا نقول اننا نعيش فى ظل سيادة القانون وفى دولة المؤسسات ، ويجب أن يستقر ذلك فى ضمير كل فرد من أبنــاء هــذا الشعب لأن استقرار ذلك فى ضمائرنا جميعا هو الذى يعطى لســيادة القانون ولدولة المؤسسات القوة والمعنى الحقيقى ، وبغير هذا الاستقرار فى ضمائر الناس تصبح الأمور كلها مجرد نصوص هامدة لا تســمن ولا تغنى من جوع •

ولا شك أننا جميعا ــ حاكمين ومحكومين ــ حريصون على أن تتأكد للقانون ســيادته ولدولة المؤسسات مبناها ومعناها •

واخيرا قضية علاقة التنظيم بالسلطة

الأصل فى التنظيمات السياسية أنها تعمل وسط الجماهير من أجل الوصـول الى السيطرة على سـلطة الدولة حتى تحقـق بواسطتها ما تسـعى اليه من أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية •

السـلطة هدف ووسـيلة فى نفس الوقت ، هى هدف نسعى اليه التنظيمات السياسية فاذا حصلت عليـه فانها تصبح فى يدها وسيلتها نحو تحقيق أهدافها •

وهكذا نجد أن العلاقة بين السلطة والتنظيمات السياسية فى البلاد التى تتعدد فيهـا تلك التنظيمات تمر بأطوار متباينة ، ذلك أنه عندما يكون التنظيم خارج السلطة فان جهده ينصرف أولا الى النيل من التنظيم السياسى الذى يملك السلطة لكى يضعف من قبضته عليهـا ثم لكى يستولى عليها وبعد ذلك يعمل جهده للحرص عليها ولتسخيرها لتحقيق أهدافه • وهكذا يوجد نوع من العلاقة الجدلية المستمرة بين التنظيمات السياسية والسلطة فى البلاد التى تتعدد فيهـا الأحزاب •

وكذلك كان الحال عندنا على نحو ممسوخ قبل قيام ثورة ٢٣ يوليه ، ونقول على نمو ممسوخ ذلك أن اللعبة السـياسية كانت تتحكم فيهـا عوامل أبعد ما تكون عن قوة التنظيمات السياسية نفسها ، وليس أدل على ذلك من أن الحزب الذى كان يستند الى أغلبية شـعبية حقيقية كانت كفيلة بوضعه فى السـلطة لو كانت الأمور تسير سيرا طبيعيا — هـذا الحزب كانت فترة حكمه فيما بين سـنة ١٩٢٤ وسـنة ١٩٥٢ هى أقل الفترات وأقصرها وكانت تنتهى دائما بنوع من الاقالة التى كانت تخفى وراءها صورة من صور الافتئات على الدستور ثم الاسـتعداد للانقضاض عليـه كلما أمكن ذلك •

وقامت الثورة وألغت الأحزاب القائمة والتى كان السوس قد نخر فى عظامها حتى أن بنيانها قد انهار دون أدنى مقاومة .

وبدأت الثورة تكوين تنظيمها السياسى فى ظل السلطة ، وكان المفروض أن يبلغ ذلك التنظيم من العمق والتغلغل فى نفوس الجماهير الى المدى الذى يجعل من التنظيم سندا حقيقيا للسلطة . ولكن الذى حدث فى الواقع أن التنظيم كان دائما عالة على السلطة ولم يكن سندا لها . كان تابعا ولم يكن محركا . كان مبررا ولم يكن موجها . كان بوقا ولم يكن مبدعا .

وقد اهتمت ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكى اهتماما خاصا بهذه القضية ورفضت بشكل صريح أن تكون مهمة الاتحاد الاشتراكى هى شرح وتفسير وتبرير كل ما تتخذه الحكومة من اجراءات .. كذلك رفضت ورقة التطوير أن يكون الاتحاد الاشتراكى سلطة فوق السلطات .

فأين يقع الاتحاد الاشتراكى اذن وكيف تتحدد علاقته بسلطة الدولة ؟

الاتحاد الاشتراكى يفترض فيه — كما جاء فى ورقة التطوير ذاتها — أن يكون « هو الاطار المنظم للحركة السياسية للجماهير الشعبية » ومن هنا تتحدد علاقة التنظيم السياسى بكل مؤسسات الدولة وتتحدد أيضا علاقته بالسلطة .

على قدر استطاعة الاتحاد الاشتراكى أن يكون حقيقة ممثلا لاطار الحركة الجماهيرية ومعبرا بصدق عن أحاسيس الجماهير واتجاهاتها وعلى قدر بعده عن أن يكون مجرد مبرر يلهث وراء الأحداث ولا يدفعها ، يلحقها ولا يسبقها ، يقوم بدور المنفعل لا دور الفاعل — على قدر بعد الاتحاد الاشتراكى عن ذلك كله وعلى قدر تصديه لقضايا الجماهير وتوضيحها والدفاع عنها وتقديم الحلول لها على قدر ذلك كله يتحدد دور الاتحاد الاشتراكى .

ولست أتصور تنظيما سياسيا فعالا يعيش كلا على سلطة الدولة في كل شيء • (سواء كان ذلك هو الاتحاد الاشتراكي أو هو حزب السلطة أيا كان اسمه) •

يعيش كلا عليها في المباني التي يشغلها •

ويعيش كلا عليها في السيارات الفارهة أو غير الفارهة التي يركبها أعضاؤه •

ويعيش كلا عليها في ميزانيته •

الوضع الطبيعي لتنظيم سياسي هذا شأنه أن يكون ذيلا للسلطة ومبررا لكل تصرف من تصرفاتها ، ومثل هذا التنظيم لابد وأن يعيش أعضاؤه في نوع من التبعية النفسية والذهنية لأجهزة السلطة ، ذلك على حين أن الأصل في الأمور أن تكون أجهزة السلطة هي التي تحاول جهد طاقتها أن ترضى حركة التنظيم السياسي الذي يعبر عن نبض الجماهير لكي تجد عنده السند والعون ولكي تجد لديه الحلول الحقيقية لمشاكل الناس على الأقل من الناحية النظرية لكي تقوم السلطة بعد ذلك بنقل هذه الحلول من حيز النظر الى حيز الواقع •

وأرجو أن يكون واضحا هنا أنني أتكلم عن التنظيمات السياسية بصفة عامة ولا أتحدث عن الاتحاد الاشتراكي بصفة خاصة ، ذلك أن التنظيم الجديد للاتحاد الاشتراكي ما زال في بدايته وأنا أرجو أن تكون هناك رغبة حقيقية في أن لا يكون التنظيم عبئا على السلطة ومن ثم ذيلا لها بل أن يكون سندا لها وهاديا ، وأنا واثق أن التنظيم السياسي سيسعى جاهدا أن يعيش على موارده التنظيمية التي يجب أن تنحصر أولا وأخير فيما يدفعه أعضاؤه، ان العمل السياسي في جوهره بذل وليس ارتزاقا ، وهذا هو المفهوم الذي لا شبهة عندي في أنه واضح تمام الوضوح لدى القيادات الجديدة التي تتصدى اليوم للعمل السياسي في بلادنا •

ان التنظيم السياسى الذى يضم قوى تحالف الشعب لابد وأن يكون معبرا من خلال منابره واتجاهاته المتعددة عن احساس غالبية الشعب وعن آرائه واتجاهاته ، وهو حين يعبر عن تلك الآراء والأحاسيس لا يجد نفسه فى صدام مع السلطة وانما يجد نفسه فى علاقة متينة معها اذ ينقدها واذ يوجهها واذ يؤيدها ، ذلك أنه ينقد لأنه يرى الصالح فى النقد لا لأنه يستهدف الانقضاض على السلطة ، ويوجه باعتبار أيه هو الذى يعبر عن آراء الجماهير العريضة ومن حق الجماهير العريضة أن توجه سلطة الدولة الى ما ترتضيه ، ويؤيد لأنه يحس ان السلطة تعمل من أجل الجماهير وتحسن العمل وترعى مصالح أوسع الفئات وأعرضها وبذلك كله تكون العلاقة بين التنظيم السياسى وسلطة الدولة علاقة صحية لها معنى ولها جدوى ولها دور تؤديه •

وقد عبرت ورقة التطوير عن ذلك كله تعبيرا صادقا ودقيقا عندما قالت « ان الوزن الحقيقى لما يصدر عن الاتحاد الاشتراكى من آراء يتوقف فى النهاية على مدى الاحساس العام بصدق تعبيره عن اتجاه القاعدة الشعبية العريضة وليس فقط عن رأى المجموعات المحدودة التى تضمها مستوياته القيادية » •

بكل الصدق وبكل الاخلاص وبكل الرغبة فى أن ينجح التنظيم السياسى نريد لذلك التنظيم أن لا يكون مجرد مبرر أو شارح وانما نريده أن يكون مبدعا وفاعلا وبهذا وحده يمكن لوزنه أن يتأكد لدى الجماهير •

نريد لتنظيمنا السياسى أن يشعر بذاته وأن يشعر بكيانه ، وأن يشعر الجماهير أنه هو الذى يعبر عن فكرها وعن آمالها ، وأن تشعر مؤسسات الدولة كلها نتيجة ذلك أن تنظيمنا السياسى قد بدأ مرحلة جديدة ثابتة الخطى ، وأن خطواته ثابتة لا لأنه يستند على سلطة الدولة ويحتمى بها ولكن لأنه هو فى ذاته سند حقيقى لتلك السلطة لأنه هو « الاطار المنظم للحركة السياسية للجماهير الشعبية » •

ويصدق ذلك على كل تنظيم سياسى •

وعلى الله قصد السبيل وهو ولى التوفيق •

حتى لا يختلط الحابل بالنابل

يتخذ الهجوم على الاتحاد الاشتراكى وفكرة التنظيم السياسى الواحد — أحيانا — ستارا للهجوم على أحد أمرين أو عليهما معا وذلك الى جوار الهجوم على التنظيم الواحد أو تحت عباءة ذلك الهجوم، وهذان الأمران هما :

النظام الاشتراكى من ناحية وتجربة ثورة ٢٣ يولية من ناحية أخرى . وهما ما يمكن أن نعبر عنه بالفكرة الناصرية .

ولابد من تحديد المواقف حتى لا يختلط الحابل بالنابل وحتى لا تتوه الامور فى نظر الجماهير وحتى لا يظن أن كل من يدعو الى توسيع قاعدة الديمقراطية باتاحة الفرصة أمام أكثر من اتجاه للتعبير عن نفسه انما يقف ذلك الموقف وهو يضمر معاداة النظام الاشتراكى أو يدين تجربة الثورة فى العشرين سنة الماضية ادانة كاملة .

والحقيقة انه لا تلازم بين هذه المواقف جميعا وانما الذى أدى الى الخلط واضطراب الأمور أن تلك الحملة الضارية التى يشنها البعض على التنظيم السياسى الواحد كان يصاحبها أحيانا تعريض بالاجراءات الاشتراكية وتحميلها — ظلما — أوزار أزمتنا الاقتصاديه الراهنة ، وكان يصاحبها أيضا تجريح للتجربة الثورية الناصرية التى بدأت فى بلادنا فى يولية ١٩٥٢ وكأن هذه التجربة ليس فيها خير قط .

وأنا من الذين يذهبون غير هذا المذهب اذ أن الذى لا شك فيه — عندى — أن تجربة ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ قد غيرت وجه الحياة فى بلادنا وفى الوطن العربى بل وفى بلاد العالم الثالث كله بما أحدثته من أفعال وردود أفعال وأن تلك التجربة لها من الايجابيات ما لا يستطيع منصف أن ينكره ، والذين يدينون هذه التجربة ادانة كاملة انما يريدون

أن يوقفوا حركة التاريخ أو يعودوا بها الى الوراء الأمر الذى ليس اليه من سـبيل ٠

ولكن تجربة ثورة ٢٣ يولية وقعت أيضا فى أخطاء كثيرة وبعض هـذه الأخطاء كان يرجع الى طبيعة المرحلة نفسـها ـ بحيث يمكن التجاوز عنه بكل موضوعية ـ وكان بعضها يرجع الى قيام التجربة على يد تنظيم عسكرى ليس لديه فكر سياسى واضح وكل ما كان فى يده عنـد البداية لا يعدو بعض النوايا الحسنة من ناحية ، ورفض الفساد القائم من ناحية أخرى ، وحماس شباب مؤمن مخلص من ناحية ثالثة ، كذلك فان الثورة لم تنجح فى أن يكون لها تنظيمها السياسى الفعال وسط الجماهير واكتفى عبد الناصر بشعبيته وقدرته على أن يخاطب الجماهير مباشرة وأن يحدث فيهـا ما يريد من تأثير وظن أن ذلك يغنيه عن تنظيم سياسى قوى يرتبط بالجماهير ويعايش حياتها ومشاكلها ، وترتب على ذلك أن التجربة الثورية فى مصر لم تأخذ فكرة التنظيم السياسى مأخذ الجد وانما أخذته مأخذ الواجهة التى تسـتخدم حينا وتهمل فى أغلب الأحايين ٠

ونشأ التنظيم السياسى بذلك عاجزا ومقدرا له منـذ البداية أن يكون دوره محدودا فى النطاق الذى ترسمه له السلطة ، وظل التنظيـم يعانى من أمراض النشأة ، بل أن تلك الأمراض كانت تكبر كلما تقـدم عمر التنظيم ٠

ولست هنا بصدد الحديث عن تنظيم الاتحاد الاشتراكى فقد سبق أن كتبت رأيى واضحا فى هـذا الموضوع وأشرت اليه باعتباره أحـد السلبيات الأساسية فى تجربة ثورة يولية وقد ترتب على هـذه السلبية وارتبط بها ان الثورة وقد كانت تسعى الى اقامة ديمقراطية سليمة لم تحقق هـذا الهدف على الاطلاق وكان علينـا أن ننتظر لكى نستأنف المسيرة نحـو اقامة تلك الديمقراطية التى وعدت الثورة بها الناس ٠

التجربة الثورية فى يولية ١٩٥٢ ليست اذن سلبا محضا وليست ايجابا محضا وانما لها ايجابياتها الضخمة ولها سلبياتها الخطيـرة ، ولكنى أتصور انه بعد فترة من التاريخ سيبقى لثورة ٢٣ يولية أنهـا كانت حدثا ضخما هز هـذا المجتمع من أركانه وهز الوطن العربى كله حوله وفجر قضايا الاشتراكية والقومية والتحرر الوطنى وأحدث أصداء بعيدة المدى فى العالم كله ، وأين هى الثورة التى خلت من السلبيات ؟ ان الثورة الفرنسية التى تعتبر معلما أساسيا من معالم التاريخ الانسانى امتلأت الحقبة الأولى منهـا بالارهاب وبالعنف بل وبالحكم الدكتاتورى نفسـه ــ تلك الثـورة التى قامت على أسـاس مبدأ سـيادة الأمة ورفعت شعارات الحرية والأخاء والمساواة ، وليس فى الدنيـا كلها من ينكر الآن ما كان لتلك الثورة من اثار ايجابية بعيدة المدى ليس فى فرنسا وحدها بل فى العالم كله •

اننا نحتاج فى تقديرنا لامورنا جميعا الى نوع من النظرة الموضوعية الكلية الشاملة التى تنظر الى جوانب المسألة المطروحة كلها ولا تجتزىء منهـا بجانب دون جانب •

والى جوار مهاجمة التجربة الثورية التى قامت فى يولية ١٩٥٢ تحت شعار مهاجمة الاتحاد الاشـتراكى يهاجم النظـام الاشـتراكى ويهاجم القطاع العام ويهاجم ــ بصوت خائف وخافت ــ مكاسب العمال والفلاحين ويقال أن ذلك كله هو سبب ما نحن فيه من أزمة • وأى باحث منصف يستطيع أن يرى أن القطاع العام ــ رغم كل ما قد يكون فى ادارته من مآخذ وعيوب ــ هو الذى أقام القاعدة الصناعية الضخمة فى بلادنا وهو الذى استوعب ذلك السيل الضخم من العمالة وهو الذى تربى فيه عـدد من المديرين نفخر بهم ، وهو الذى دفع عجلة الحيـاة نفسها فى مصر ، ولولا القطاع العـام وما أقامه من قاعدة صناعية وما حقق من دخول وما قدم من خدمات لمـا استطاع الاقتصاد المصرى أن يصمد فى السنوات العجاف التى أعقب نكسة ١٩٦٧ •

ولولا قوانين الاصلاح الزراعى وتحديد الملكية ما أمكن هز قواعد الاقطاع فى مصر وفتح الباب أمام وعى الفلاح المصرى لكى يعيش فى القرن العشرين ويتطلع تطلعا مشروعا الى أن يكون له رأى فى أمور بلده .

أن الأزمة الاقتصادية الراهنة ليس مرجعها ما حدث من بعض مظاهر التحول الاشتراكى ولكن الشىء اليقينى أن مظاهر هـذا التحول هى التى خففت من حدة الازمة بعض الشىء والاسباب الحقيقيـة للازمة تكمن فى تلك الأعباء الضخمة والرهيبة التى حملتها مصر نيابة عن الأمة العربية كلها فى الحروب المتعاقبة التى خاضتها ضد الصهيونية العالمية ، ولو تصورنا أن ما أنفق على تلك الحروب قد أنفق على التنمية فى مصر لكان حالنا الآن غير هـذا الحال .

ومن ناحية أخرى فان غياب التخطيط وظهور الرأسمالية الطفيلية غير المنتجة وفتح الابواب بغير ضابط ولا رابط للامراض الاقتصـادية الوافدة وشيوع الأنماط الاستهلاكية وضمور الانتاج كل ذلك كان وراء أزمتنا الاقتصادية الراهنة التى ليس سببها اذن القطاع العام ولا النظام الاشتراكى وانما أسبابها واضحة وجلية ، ومن السذاجة ما يحاوله البعض أحيانا من أن نحمل هذا الشخص أو ذاك مسئولية هذه الأزمة ، كما لو كان الأمر من الممكن تفاديه باجراءات مالية معينة ، اننى لا أتعرض لما قد يكون حدث من أخطاء ــ فهذا طبيعى ــ ولكن ذلك شىء والأسـباب الحقيقية للازمة شىء آخر .

لنقل رأينا فى قضية التنظيم الواحد ولكن لنكن واضحين وصرحاء مع أنفسنا ونحدد مواقفنا حتى لا تختلط الأمور أمام الناس ، هـذا وأن كنت اعتقد أن شـعبنا ــ رغم الأمية التى تنهك وعيه ــ ذكى القلب والعقل لا يسـهل خداعه والتغرير به وأنه قادر على كشف الغث من السمين .

أن التنظيم الواحد الأحد الذى يحجز على كل رأى آخر لم يعد له

مبرر ولا مقتض ومنطق التطور يرفض هذه الفكرة ولا يستطيع أن يسلم أو يقتنع بهـــا •

ولكن هـــذا القول لا يعنى بالضرورة ادانة التجربة الثورية ادانة كاملة ولا يعنى بالضرورة التنكر لقضية الاشتراكية • أننا نريد أن نبنى مجتمعنا بالديمقراطية وبالاشتراكية معا مرتبطين ارتباطا متكاملا لا انفصام فيه على حد تعبير ميثاق العمل الوطنى الذى يمثل خلاصة فكر التجربة الناصرية ، ونريد ونحن نبنى هذا المجتمع أن نعى دائما أننا نبنى درع الأمة العربية كلها ، تلك الدرع التى هى فى حاجة الى أمتها وأمتها فى مسيس الحاجة اليها •

الديمقراطية بين الجوهر والأشكال

لم يلق نظام سياسى من الحماس قدر ما لقيت الديمقراطية •
ولم يهاجم نظام بمثل ما هوجمت به •

ولم يظلم قط سـواء من أنصـاره أو من أعدائه قدر ما ظلمت الديمقراطية •

ومع ذلك كله فان حركة التاريخ منـذ فجره وحتى يوم الناس هـذا هى حركة دائبة من أجل حرية بنى الانسان حتى وان ظهر فى مجرى التاريخ الانسانى بعض الانتكاسات التى تنال من الحرية هنا أو هناك ،

ولكن على رغم هـذه الانتكاسات ــ أو بالرغم منهـا ــ فان مجرى التاريخ العـام يؤكد لنا انتصار قضـية الحرية واندحار كل العوائق والعراقيل التى تقف أمامها •

وحرية الانسـان هى جوهر الديمقراطية •

ولكن هل يكفى أن نقول ذلك لكى نعرف جوهر الديمقراطية ؟ اننا اذا قلنا ذلك كنا كمن عرف المـاء بعد الجهد بالمـاء •

علينا اذن أن نحاول التصدى لذلك الجوهر لنعرف كنهه ومعناه •

الحقيقة أننا عندما نتحدث عن الديمقراطية ــ بمعناها التقليدى ــ نقصد ذلك المذهب السياسى والقانونى الذى تفجرت عنه ثورات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية •

وهـذه الديمقراطية التى نعرفها منـذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم وليدة تطور طويل منـذ أن تحدث عنهـا بعض فلاسفة الأغريق ــ وعلى رأسهم أرسطو ــ ومنـذ أن طبقتها عملا بعض المدن اليونانية قبل الميلاد ببعضة قرون • وبرغم ما حدث من تطور عميق فى معنى

الديمقراطية وفى مداها فان أساسا مشتركا بين ما قال به الأقدمون وبين ما يقال اليوم مازال موجودا : ذلك هو ان الديمقراطية تعنى حكم الشعب اذ هى ليست حكم فرد واحد وهى أيضا ليست حكم قلة ارستقراطية .

ولكن العنصر الأساسى فى التعريف الذى ناله التطور العميق هو ما تعلق « بالشعب الحاكم » كان الشعب الحاكم فى المدن اليونانية قلة قليلة من الذين يقطنون المدنية ، كانوا قلة لا تتجاوز العشر على أحسن الفروض وكان الباقون لا يشـاركون فى شىء لأنهم لم يكونوا ضـمن « الشعب الحاكم » حسب مفهوم الديمقراطية الذى كان قائما آنذاك .

وفى ظل الامبراطورية الرومانية رأت الديمقراطية فترات قصيرة من الازدهار .

ثم جاءت رسالات السـماء الكبرى ـ المسيحية والاسـلام ـ لتعلن أن البشر متسـاوون ولتضـع بذلك أساسا جوهريا من أسس الديمقراطية ، اذ انه مما يتناقض تناقضا بينا مع المسـاواة أن يذل أناس وأن يتسلط آخرون .

وأضاف الاسـلام فى هـذا الباب اضافة واسعة وعميقة عندما قرر أن أمر الجماعة شورى بينها لا يستبد به دونها فرد واحد مهما علت منزلته ، وعندما قرر قاعدة الدولة القانونية ورفض أن تكون هنـاك طاعة فى معصية .

ومرت على الانسانية بعد ذلك قرون من العسف والطغيان والظلام .

ولكن قرون الظلام الطويلة لم تكن تخلو من ومضات ضوء هنـا أو هنـاك ، وكانت تلك الومضات تتمثل فى فكر بعض المفكرين وفى دعوات بعض المصلحين الى تغيير الأوضاع الجائرة التى كانت قائمة فى كل المجتمعات الانسانية .

وبعد أن احتكت أوربا بالحضـــارة العربية الاسلامية عن طريق الحروب الصليبية والأندلس وبعد أن بدأ عصر النهضة كانت ومضات الضوء أشد لمعانا وأكثر تواترا •

ثم كانت بوادر النهضة الصناعية وانهيار الاقطاع وقيام طبقة من الصناع والتجار وأرباب الحرف، وأصـحاب الرساميل وأحسن هؤلاء جميعا استغلال فكر المفكرين ودعوات الداعين الى التغيير وحركوا وقادوا حركات ثورية من أجل انتزاع السلطة من أيدى من كانت بيدهم امراء اقطـاع كانوا أو ملوكا مستبدين — أو من أجل تقييد تلك الســلطة والمشاركة فيهــا على الأقل •

وكانت انجلترا هى أسبق البلاد الأوربية فى هــذا الشأن •

ومنــذ صدور الـــ Magna Carta أو العهد الأعظم كما نسميه بالعربية فى أوائل القرن الثالث عشر بدأ تطور طويل بطىء ثابت نحو توسيع رقعة الشعب الحاكم الذى يشارك فى اتخاذ القرار •

ولمــا قامت الثورة الفرنسية الكبرى فى أواخر القرن الثامن عشر كان قيامها ايذانا بانتهاء مرحلة وبداية مرحلة أخرى فى تاريخ البشرية ذلك ان تلك الثورة استطاعت — على نحو بالغ الانتشار — أن تجعل من الديمقراطية بعد أن كانت مجرد مذهب فكرى يتحدث عنه الفلاسفة الأوربيون استطاعت أن تجعل منه حقيقة سياسية ، ويبدو ذلك واضحا من أن الثورة قضت بالفعل على سلطان الملوك والكنيســة والطبقات الاقطاعية فى وقت واحــد وأنها نقلت الســلطة الى قطاعات واســعة من الشعب ، قطاعات غير مغلقة داخل أسوار مسدودة • قطاع واسع من الشعب أهم ما فيه أنه ليس محددا ولا مغلقا وانما هو قطاع من الممكن الدخول فيه والانتماء اليه على عكس ما كان الحال من قبل اذ لم يكن مستطاعا الانتماء الى طبقة النبلاء والاشراف مثلا وانما كانت تلك طبقات مغلقة على نفسها وكانت هى الطبقات الحاكمة فعلا •

هـذا عن التطور التاريخي بايجاز للمذهب الديمقراطي •

أما الأساس الفلسفي الذي تقوم عليه الديمقراطية فهو المذهب الفردي وما بني عليه من نظرية للحقوق والحريات الفردية الطبيعية •

وحجر الزاوية في هذا المذهب أن الانسان الفرد هو الحقيقة الأساسية الأولى في المجتمع الانساني وان ذلك الانسان الفرد يتمتع بحكم الطبيعة نفسها وقبل وجود الدولة وسلطتها بحقوق وحريات طبيعية توشك أن تكون مقدسة ، وما وجدت الدولة ولا السلطة السياسية فيها الا من أجل وحماية تلك الحقوق ودعم تلك الحريات ، ولا يجوز والأمر كذلك لسلطة الدولة أن تمس تلك الحقوق والحريات وأن تنال منها ذلك أنها اذا أقدمت على هذا الأمر خالفت السبب الأساسي لوجودها وخرجت عن سند مشروعيتها •

ومصلحة الفرد — في هذا المذهب — مقدمة على مصلحة الجماعة ، ولا يعني ذلك عندهم اهدار مصلحة الجماعة وانما يعني — فيما يذهبون — أن مجموع المصالح الفردية هو الذي يحقق في النهاية المصلحة الجماعية ، وكذلك فان القوانين الاجتماعية الطبيعية تؤدي في آخر الأمر الى التوفيق بين المصلحتين بحيث لا يكون التعارض الا ظاهريا وبحيث يحدث الالتقاء بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة •

والحرية الفردية مصونة لا تمس طالما أنها لا تصل الى حد ايذاء الغير ، ان حدود الحرية وفقا لهذا المذهب — الذي هو الأساس الفلسفي للديمقراطية التقليدية — تكمن في عدم ايذاء الآخرين أما اذا لم تؤد الحرية الى ايذاء الغير فهي حرية لا يجوز تقييدها ولا النيل منها لانها حرة طبيعية سابقة على السلطة بل وموجدة لها • وعلى هذا الأساس فان الحكومات في ظل الديمقراطية التقليدية هي حكومات مقيدة وليست حكومات مطلقة • ذلك أن سلطتها تقف عند حد الحقوق والحريات الطبيعية لا تستطيع أن تمسها • كذلك فان الأفراد يتساوون فيما لهم

من حقوق من الناحية النظرية ـــ وينتج عن ذلك المساواة القانونية أو المساواة فى نظر القانون •

هذا هو الأساس الفلسفى للديمقراطية التقليدية •

وهذا أيضا هو جوهرها •

ولكن هذا الأساس أو الجـــوهر اصابه تطور عميق من ناحيـــة مضمونه •

ذلك أنه يبدو واضحا أن المذهب الفردى ـــ الذى هو الأســـاس الفلسفى للديمقراطية التقليدية ـــ لا يعنى الا الجانب السياسى من حياة الأفراد فى المجتمعات البشرية ولا يعنى بالجانب الاجتماعى ، لقد كانت الديمقراطية ـــ كما يقولون ـــ مسألة عقل وقلب وليست مسألة زبد وخبز كما لو كان من الممكن أن يوجد العقل والقلب دون الزبد والخبز أو دون قدر منهما •

ورغم أن كثيرا من كتابات المفكرين كانت قد بدأت منذ وقت غير قصير تبشر بالجانب الاجتماعى للديمقراطية ورغم أن الاسلام هنا أيضا كان صاحب فضل كبير ذلك أن قضية العدل الاجتماعى فى الاسلام قضية أساسية ـــ رغم ذلك كله فان البشرية كان عليها أن تنتظر طويلا قبل أن يستقر فى وجدان المفكرين ووجدان الحكام والمحكومين أن الديمقراطية لابد لها من جناحين : جناح سياسى يتمثل فيما كان يقول به دعاة المذهب الفردى وجناح اجتماعى يتمثل فيما يقول به دعاة العدل الاجتماعى واذا كان جوهر الديمقراطية قد تطور ليستقر أخيرا على هذا الأساس المزدوج فان هذا الأساس بدوره قد قامت حوله تيارات عديدة شتى •

وهنا نصل الى قضية الأشكال لنجد الديمقراطية فى صورة شكل نيابى برلمـــانى أو نيابى رئاسى أو الى غير ذلك من أشكال •

كذلك فاننا قد نجد نظاما يقوم على حزبين أو على تعدد الأحزاب أو حتى دون أحزاب أصلا • فالأحزاب ـــ وان كانت أساسية فى التنظيم

الديمقراطى عند الكثرة من المفكرين السياسيين الا انها طارئة بالنسبة لجوهر الديمقراطية وجديدة عليه على الأقل فى صورتها الراهنة .

ولكن يبقى بعد ذلك كله وقبل ذلك كله جوهر الديمقراطية هو هو لم يتغير فى أن يكون الحكم للشعب كله وأن يكون الشعب كله هو صاحب الكلمــة الأخيرة فيما يمس حيــاته ويتصل بمصــيره ويرسم له طريق المستقبل .

وتأتى بعد ذلك التنظيمات المختلفة لتحدد هذا الشكل أو ذاك . وما دام الشكل لا يعتدى على الجوهر أو يؤدى الى مسخه ويجعل الظاهر وكأنه حكم الشعب والواقع هو حكم فرد أو حكم قلة ــ ما دام الشكل لا يؤدى الى مثل ذلك نكون فى ظل الديمقراطية .

فاذا جار الشكل على الجوهر ونال منه وأصبح الحكم دولة بين أيدى عدد قليل من الناس ــ أيا كان سندهم فى ذلك اقتصاديا أو فكريا أو قوة عسكرية مادية ــ فاننا نكون جد بعيدين عن الديمقراطية مهمــا رفعنا من شعارات .

فلسفة الدكتاتورية

يخطىء من يظن أن النظام الدكتاتورى يقوم — فى أصوله — على غير فلسفة معينة .

عكس ذلك هو الصحيح ، ذلك أنه رغم اختلاف الأنظمةالدكتاتورية فى أشكالها وفى دعاويها فان ثمة أساسا مشتركا يوشك أن يجمع بينها ، هذا الأساس المشترك هو ما يمكن أن نسميه فلسفة النظام الدكتاتورى .

وهذا الاساس يتمثـل فى موقف خاص أو تصـور معين لفكـرة « الدولة » وموقف خاص أو تصور معين لمفهوم « الانسان » .

وهذا الاساس المشترك ساهم فى ارسائه كثيرون من المفكرين ذوى الاتجاهات المعادية للديمقراطية سواء فى القديم أو فى الحديث .

الا أنه بين فلاسفة هذا المذهب يقف الفيلسوف الألمـانى هيجل على القمة بينهم جميعا .

ويذهب هيجل فى تقديسه لفكرة الدولة الى أنها — أى الدولة — هى القيمة المطلقة الوحيدة فى الحياة الانسانية ، وهى ارادة الله على الأرض وهى الحقيقة الوحيدة الشاملة غير المحدودة ، والقـانون هو التعبير الموضوعى عن روح الدولة ومن ثم فان طاعة القانون هى ذات الحرية ، لأن هذا التصور الخالد المطلق للدولة يرفض قيام تناقض بين الضرورة والحرية .

ان ضرورة طاعة ارادة الدولة — ومن ثم ارادة الحاكمين فيها — هى الضمان النهائى للحرية أو هى ذات الحرية فيما يذهب اليه هيجل . ذلك أنه لا حرية خارج ما تريده الدولة .

واذا كان تصوير الدولة على ذلك النحو المطلق فان هذا التصوير يتعارض تماما مع فكرة الدولة ذات السلطات المقيدة الخاضعة للقانون ، كذلك فانه ليس قصاراه أن تتدخل الدولة ــ كما يحدث فى النظام الديمقراطى ــ من أجل توفير ضرورات الرخاء للانسان ، انها تصل الى أبعد من ذلك لأنها هى ــ أى الدولة ــ كل شىء ، انها الحقيقة الكاملة للوجود الانسانى .

يقول موسولينى معبرا تماما عن هذا الاتجاه الفكرى : ان الدولة هى المطلق فى مواجهة الأفراد والجماعات الذين يظلون دائما بمثابة أمور نسبية فى مواجهة الدولة ... ان الدولة ليست مجرد حارس ينشغل بواجب تحقيق السلامة للمواطنين ليس الا . كذلك فانها ليست مؤسسة ذات أغراض مادية بحتة لضمان مستوى معيشى طيب وظروف آمنة للحياة .. ان الدولة تمثل الروح الخالدة للأمة .. ان الدولة لا تلغى الفرد ولكنها تجعله جنديا فى كتيبة ... وهى تبقى للفرد نطاقا من الحرية بعد أن تحول بينه وبين الحريات غير المفيدة ، والدولة وحدها هى التى تقرر مدى ذلك النطاق .

ولعل أوجز عبارة قيلت فى هذا الموضوع وأوضحها دلالة مع ذلك هى التى تقول :

«لا شىء خارج الدولة ولا شىء ضد الدولة ولا شىء فوق الدولة» .

وهذه الجملة الموجزة تعبير كامل عن التصور الديكتاتورى للدولة :

تصور شمولى مطلق يستغرق كل شىء ولا يستغرقه شىء .

أما بالنسبة للموقف من الانسان فاننا نصادف حقيقتين تطبعان المذهب بطابعهما فى هذا الخصوص وهما فى الواقع وجها حقيقة واحدة أكثر من كونهما حقيقتين متميزتين :

الايمان بالفرد الممتاز ، وعدم الايمان بالمساواة بين البشر .

الناس ليسوا متساوين فى نظر أصحاب المذاهب الدبكتاتورية وانما يختلفون اختلافا فرضته الطبيعة فى كل شىء ، وهم يختلفون اختلافا لا سبيل الى التغلب عليه وتخطيت بل وليس من الصالح التغلب عليه أو تخطيه •

الناس ليسوا سواسية كأسنان المشط وانما هم مختلفون بحكم الطبيعةنفسها وليس لمجرد اختلاف الظروفالمحيطة بهم ، وهذا الاختلاف لا يعتبر من الأمور الاستثنائية وانما هو الأصل فى حقائق الحياة عندهم

وعلى ذلك فقد خلق أناس ليحكموا وخلق آخرون ليكونوا محكومين• وأولئك وهؤلاء مختلفون عن بعضهم تماما •

ومن بين أولئك الممتازين يأتى الفرد الممتاز عن كل الممتازين ، ذلك الفرد الذى يجسد أنبل خصائص آلامه وأعلى سماتها • يأتى البطلالذى تتعلق به الأنظار والمنقذ الذى يعيد للأمة مجدها • هذا الفرد الممتاز لا يعتبر مجرد ممثل للأمة أو نائب عنها وانمـا هو التشخيص الكامل للأمة ، هو الأمة نفسها وارادته هى ارادتها وقوله قولها والأمة عندما تقدسه وتطيعه انما تقدس وتطيع نفسها •

والحقيقة أن بعض الكتاب الألمـان وصلوا بفكرة الزعيم الممتاز حـدودا جعلت ذلك الزعيم يخـرج عن أن يكون بشرا واقتربت به من طبائع الالهة •

وقد ترتب على فكرة عدم المساواة بين الناس فكرة أخرى ملازمة لها ومؤدية أيضا الى نتائج خطيرة مثل خطورة القول بالفرد الملهم•

اذا كان الناس غير متساوين فان أجناسهم أيضا غير متجانسة ولا متساوية • وقد ترتب على ذلك عند الكتاب الألمـان المؤمنينبالديكتاتورية أن الجنس الآرى هو أرقى الاجناس وأن من حقه أن يسود غيره من الأجناس والأمم وأن يتسلط عليها لمـا جبل عليه من امتياز وتفوق •

تلك هى فكرة الجنس الممتاز •

هذان هما الموقفان اللذان يقفهما هذا النوع من التفكير ازاء هاتين القضيتين : قضية الدولة وقضية الانسان •

وقد ترتب على هذين الموقفين موقف آخر فيما يتعلق بعلاقة الأمم ببعضها •

وحتى نستطيع أن نتبين أبعاد هـذا الموقف فانه يحسن بنـا أن نسترجع بعض النتائج التى ينتهى اليها ذلك التفكير بالنسبة للقضيتين السابقتين : الدولة هى المطلق وسلطانها بغير حدود •

الفرد جندى فى كتيبة وهو حقيقة نسبية فى مواجهة الحقيقة المطلقة وهى الدولة • الأفراد ليسـوا متساوين والأجنـاس بالتـالى ليست متساوية •

هناك الفرد الممتاز الذى يشخص الارادة المطلقة للدولة •

وهناك الجنس الممتاز الذى يجب أن يسود العالم •

هذه هى النتائج الضرورية اللازمة عن ذلك التفكير ، وهذه النتائج لابد مؤدية الى نتيجة أخرى تحكم العلاقات بين الأمم •

هل العلاقات بين الدول يجب أن تكون علاقات سلام أم علاقات حرب ؟؟••

يقول هيجل : ان الحرب تبرز أنبل سجايا الانسانية •

ويقول موسولينى : ان السلام الدائم لا هو بالممكن ولا هو بالمفيد، ان الحرب وحـدها بما تحـدثه من توتر هى التى تبتعث أقصى نشاطات الانسانية • وهى التى تضع وسام النبل على صدور أولئك الذين لديهم الشجاعة لمواجهتها •

هذه هى الفلسفة التى يقوم عليها النظام الدكتاتورى وهذه هى النتائج التى ينتهى اليها •

وقد عانت الانسانية طويلا من الحكم المطلق للفرد أو لمجموعة من الأفراد ، ولم تكن نتيجة هذه المعاناة على مسار التـــاريخ الطــويل الا قوارع وكوارث .

ويوشك مجرى التاريخ الانسانى أن يؤكد لنا أن النظام الدكتاتورى هو نظام ضد حركة التاريخ وأنه بذلك نظام ينتمى الى الماضى ولا يتفق مع الحاضر ولا يمكن أن يستمر فى المستقبل .

ان حركة التاريخ الانسانى تسير دائما ــ حتى رغم بعض الهزات فى مسار دعم حرية بنى الانسان .

الحوار بين المتحضرين

أكاد أتصور أن هـــذه هى البداية الحقيقية لكل شىء جاد

أن نعرف كيف نجيد الحوار وكيف يرسى قواعـــده ، ثم كيف نحترم تلك القواعد وأن لا نضيق بها ذرعا فى منتصف الطريق •

وحتى نكون واضحين ومحددين فان علينا أن نبدأ بتحديد مفاهيم الكلمات : ما الذى نعنيه بالحوار وماذا نعنيه بالمتحضرين •

وكيف يتحقق ذلك فى كل جوانب حياتنا •

أظن أن مفهوم الحوار هو تبادل وجهات النظر المختلفة بـــين المتحاورين من أجل الوصول الى استخلاص حقائق مشتركة أو الوصول الى قطاعات يلتقى عليهـــا أطراف الحوار •

وليس من شأن الحوار بالضرورة أن يؤدى الى ذلك فقد ينتهى الحوار بعد أن يعرض كل وجهة نظره دون التقاء أو اتفاق •

وحتى فى مثل هـــذه الحالة فان الحوار لا يخلو من جدوى ذلك ان المتحاورين يعرف بعضهم مواقف البعض الآخر على حقيقتها ويتعامل معها على هـــذا الأساس • وليس هـــذا فحسب ولكن الحوار فى حد ذاته نوع من التعبير عن الذات وتأكيدها معا لا يجعلها تتحول الى طاقة فى الظـــلام •

وهكـــذا فاننا نستطيع أن نحدد هدف الحوار فى أنه زيادة فى المعرفة وسعى نحو الالتقاء والاتفاق على أهداف معينة فاذا حدث ذلك فان المنطقى أن تتجه الطاقات نحو تحقيق الأهداف التى تم الالتقاء عليهـــا •

● كتب هذا المقال بعد اكتوبر ١٩٨١ ونشر فى المصور وهو آخر مقال تم نشره قبل طبع هذا الكتاب .

وأتصور أن هـذا المفهوم للحوار واضح وبسيط ولا يثير جدلا كثيرا •

وأحب أن أضيف سؤالا : هل كل شيء قابل للحوار •

وأسارع فأقول نعم كل شيء قابل للحوار ، ذلك ان رفض الحوار فى موضوع معين بدعوى اكسابة قداسة معينة لا يعدو أن يكون نوعا من الضعف أو الخوف أو التستر بأوهام لا تقوى على النقاش •
ان أعلى حقائق الوجود وأكثرها قداسة لا يمكن أن تكون بعيدة عن الحوار ، وأن ابعادها عن دائرة الحوار لا يعنى الا الضعف والخوف وعدم الثقة فى شموخ هذه الحقائق وصلابتها •

كل شيء اذن قابل للحوار •

وماذا عن « المتحضرين » ؟
لن أحاول هنا أن أدخل فى ذلك الجدل الواسع حول تعريف الحضارة ذلك أن مفهومها من أكثر المفاهيم اثارة للجدل والخلاف ، ولكن لعلنا نستطيع أن نتفق على أن صفات المجتمعات المتحضرة أن الناس فيها يحترم بعضهم رأى البعض الآخر ، ولا يتصور ذلك البعض أن يقسر الآخرين على شيء ، وانما مجتمعات تحقق الامن بمعناه الواسع لكل المواطنين : أمن اللقمة وأمن الكلمة وأمن الحياة الخاصة •

ومن صفات المتحضرين أيضا أنهم لا يتصورون أن ثمة موضوعا أو قضية فوق النقاش أو الحوار ومن هنا يبدو « الحوار » فى حد ذاته وقبوله كأحد المسلمات الأساسية فى الحياة هو أيضا من سمات المجتمعات الحضارية •

واذا نظرنا حولنا فاننا نستطيع ببساطة أن نفرق بين الجماعات المتحضرة والجماعات المتخلفة بقدر اتساع مساحة الحوار أو ضيقها هنا أو هناك • وكلما اتسعت دائرة الحوار وقلت عليه القيود كنا أمام

مجتمع متحضر وكلما ضاقت دائرة الحوار وكثرت القيود والموانع كنا أمام مجتمع متخلف •

ومن الأمثلة المأثورة فى تراثنا العربى المثل القائل « ان الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية » ولكن هـذا المثل الذائع كان لا يعبر عن الواقع العربى فى أغلب الأحوال • ذلك اننا اذا تجاوزنا الفترات الزاهرة فى الحضـارة العربية سـواء فى صدر الاسـلام أو فى بعض أيام العباسين فان الغالب أن الخلاف فى الرأى كان يؤدى الى الشحناء والبغضاء واللدد العنيف فى الخصومة الى حد امتشاق الحسام •

وكان السلطان دائمـا على صواب ، ولم يكن الحوار معه مأمون العواقب فى كل الأحوال خاصـة اذا تطرق الحوار الى مسائل السياسة • وكان الويل دائمـا نصيب من يخالف السلطان •

واعتقد أن روح الاسلام السمحة الصافية تدعو الى الحوار والى المجادلة بالتى هى أحسن وتنفر من العنف وتدينه وأن مظاهر العنف فى المجتمع العربى جاهلية الأصول وتتعارض تماما مع القيم الاسـلامية التى تعطى العقل مداه وتدعوه الى التدبر والنظر والتفكير •

واعتقد أيضا أن سببا أساسيا من أسـباب تخلف المجتمع العربى تكمن فى ضيق المساحة التى يسمح فيها للفرقاء المختلفين بالحوار •

وأكاد أشـعر اننا فى هـذا الجزء من الوطن العربى — مصر — نوشك أن نقبل على واقع جديد • واقع يوسع من مساحة الحوار بـل يطلبه ويلح عليـه ويراه مدخلا أساسيا لمواجهة المشاكل والوصـول الى الحقائق والاهتداء الى الحلول •

ومسئوليتنا جميعا أن نحافظ على هذا « الواقع الجديد » نحميـه وننميه ، ذلك اننا بغير الحوار الخصب البنـاء لن نصل الى شىء قط ولن نعبر التخلف الى التقدم وسنظل ندور وندور حول مشاكلنا الداخلية والخارجية دون أن نهتدى الى الحلول السليمة والحقيقية •

واذا استطعت فى هـذه العجالة أن اطرح بعض أسس الحوار التى ينبغى أن نسير عليها ــ اذا قبلناها جميعــا ــ فاننى أكــون قد حققت شـيئا .

ولعل أول هذه الأسس انه لا أحد يملك بين يديه وحـده ميـزان الحق والصواب ولا أحـد يستطيع أن يدعى انه وحـده يملك الحقيقة كلها دون ســواه .

وقد ضل البعض وذهبوا فى الضلال مذهبا بعيدا اذ اعتقدوا أنهم هم وحدهم على صواب وان كل من عداهم كافرين مارقين من رحمة الله . ويصدق هـذا فى عالم السياسة وفى عالم الدين على ســواء ، ذلك أنه لا أحـد هنا أو هناك يملك القول الأخير وفصل الخطاب .

هـذه هى القضية الأساسية الأولى فى منهج الحوار الســليم .

فاذا اتفقنا عليهــا فانه يترتب على ذلك بالضرورة حق الفرقاء جميعا ــ بل وواجبهم ــ فى أن يعبر كل منهم عن رأيه وأن يســمع رأى الآخرين وأن لا يتخذ أحـد الفرقاء من أمر عارض ــ كوجود السلطة فى يده مثلا ــ سببا لمنع الآخرين من ابداء رأيهم والدفاع عنه .

وأطراف الحوار قد يكونون أفرادا وقد يكونون تنظيمات سياسية أو مهنية ، وليس من حق أحـد أن يصادر رأى أحـد مستندا الى أى دعوى ســابقة على الحوار ، ذلك أن الحوار هو المقـدمة الأولى التى تثبت صـحة كل دعوى أو تنفيها .

فاذا كانت هـذه هى بعض أسس الحوار وهـذه هى أطرافه فما هى وســائله ؟

تتدرج وســائل الحوار وتتنوع تنوعا شـديدا :

ففى المدرســة قد تكون وســيلة الحوار هى المناظرة بين بعض

التلاميذ والبعض الآخر وليت مدارسنا ومعاهدنا تعود الى هذه الصورة من صور تربية النشىء وتعويدهم على أن الحياة متعددة الاتجاهات وانه لا يوجد ما يقال له رأى واحد أو فكر واحد أو اتجاه واحد الا عند أصحاب العقول المريضة ٠

وفى الجامعات قد تكون وسيلة الحوار هى الجمعيات العلمية وصحف الاسر ومجلات الكليات والندوات العلمية ٠

وفى المجتمع على اتساعه تبدو وسيلة الحوار ممثلة فى أجهزة الاعلام المسموعة والمرئية والمقرؤة ٠ وهذه الوسيلة هى أخطر الوسائل وأهمها ذلك انها أكثر الوسائل عمومية وانتشارا واتصالا بجماهير الناس وتأثيرا عليها ٠

والمشكلة الحقيقية بالنسبة لهذه الوسائل أن ملكيتها أمر بالغ الصعوبة بالنسبة للأفراد من ناحية وتحيطه فى كثير من الدول عديد من القيود من ناحية أخرى ٠

ففى الكثرة من بلاد العالم الدولة وحدها هى التى يحق لها أن تمتلك محطات الاذاعة والتلفزيون وقليل من الدول من توجد فيه محطات ارسال اذاعى أو تليفزيونى مملوكة ملكية خاصة ٠

وفى بلاد العالم المتحضر لا تؤثر ملكية الدولة على الاذاعة والتلفزيون على طريقة ادارتها واستعمالها على نحو يحقق بعض الحيدة بين التنظيمات السياسية ما كان منها فى الحكم وما كان منها فى المعارضة ؛ كذلك فان ضمان قدر من الاستقلال لهذه الأجهزة الخطيرة يجعلها مكانا لتصارع الآراء المختلفة ويجعل منها مسرحا حقيقيا للحوار ٠

وليس كذلك الحال فى بلاد الأنظمة الشمولية ولا فى الكثرة الغالبة من بلاد العالم الثالث حيث تعتبر من المهام الأساسية لهذه الأجهزة « الدعاية » للسلطة القائمة وليس « الاعلام » عن التيارات والآراء المختلفة ٠

واذا أردنا للحوار الحقيقى فى بلادنا أن يأخذ مجراه بحسبانه المقدمة الحقيقية لمواجهة المشاكل والوصـــول الى حقائق الأمور وباعتباره الضمان الحقيقى ضـــد كل صـــور العنف أيا كان مصدرها وأيا كانت طبيعتها ــ ذلك أن العنف ليس صـــورة واحـــدة وأن كان أوضحها وأبرزها العنف المادى ــ فلا بد من أن يكفل لجهاز الاذاعة والتلفزيون قدر من الاستقلال الحقيقى مهما كان محدودا عن سلطة الحكومة القائمة وأن يتاح للتنظيمات المعارضة وللتيارات الفكرية المختلفة أن تعبر عن نفسها من خلال هـــذه الأجهزة •

وما يقال عن الاذاعة والتلفزيون يقال من باب أولى عن الصحف التى نسميها أحيانا بالصحف القومية وقومية هـــذه الصحف لا يمكن أن تتحقق اذا كانت نافذة لاتجاه واحد ورأى واحد وتنظيم واحـــد ذلك الا اذا قبلنا فكرة الدولة الشـــمولية وفكرة الحزب الواحـــد ورفضنا أن يكون الحوار وســـيلة من وســـائل حياتنا الســـياسية والفكرية • ومعنى ذلك أن تتحول حياتنا الى نوع من « المونولوج » الأحادى المصدر والأحادى الصوت والاتجاه والحادث غير ذلك اذ أننا ننادى بالديمقراطية وندعو الى الحوار •

والى جوار الصحف القومية فان القيود يتعين أن تخف الى حـــد كبير على الصحافة الحزبية وحتى الصحافة المملوكة للشركات الخاصـــة • ومنع المصادرة الادارية للصحف التى ينص عليهـــا الدستور والقانون تعنى أن لا تكون تلك المصادرة الا بنـــاء على حكم قضائى بعـــد محاكمة يسمع فيهـــا الاتهام ويسمع فيهـــا الدفاع ويصدر فيهـــا حكم قضائى • والذى حدث عندما ان قرارات ولائية صادرة من قاض ـــ دون محاكمة ـــ أدت فعلا الى اغلاق الصحافة الحزبية ووأدها فى مهدها • والأصل أن هـــذه القرارات لابد وأن تتبعها فى نفس اللحظة الاحالة الى المحاكمة ليصدر القضـــاء حكمه وهو الأمر الذى لم يحـــدث قط مما جعل تلك القرارات هى من نوع القرارات الادارية رغم صدورها ـــ شكلا ـــ من

أحـــد القضاه وجعلنا فى مواجهة مصادرات ادارية فعلا الأمر الذى رفضه الدستور والقانون •

هل نحن طلاب حوار حقيقية وفعلا •

أرجو أن نكون جميعا كذلك •

وأرجو أن لا تضيق صدورنا بعد خطوة أو خطوتين وليس هنـــاك من ضمان لنـــا جميعـــا حاكمين ومحكومين ، أغلبية وأقلية أقوى من أن يجرى كل شىء فى الضوء وتحت رقابة الرأى العـــام وحكمه •

حتى لا يفسد الخلاف فى الرأى : قضية الود

من الأمثلة المقررة فى تراثنا العربى ان الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضـــية ٠

ويبدو أن هـــذا المثل قيل من باب التمنى لا من باب رصد الواقـــع والتعبير عنه ، ذلك ان التاريخ العربى فى جملته يدلنا على أن الخلاف فى الرأى كان ــ على عكس المثل الشائع ــ يفسد للود كل قضية ٠

واذا تجاوزنا الفترة القصيرة من التاريخ العربى الاســـــلامى التى تمثلت فى أيام الرســـول صلوات اللـــه عليه ثم فى أيام الراشدين أبى بكر وعمر لوجدنا أن تاريخنا بعد ذلك فى جملته هو تاريخ اللدد فى الخصـــومة والمبالغة فى تهويل الخلاف وترتيب أقصى النتائج عليـــه ، يســـتوى فى ذلك الخلاف فى الرأى حول المســـائل النظرية المجـــردة كمسائل الفلسفة وما اليها أو الخلاف فى الرأى حول المســـائل السياسية وما تعلق بها ، وان كان الخلاف فى الرأى فى هـــذه الأمور الأخيرة كان يأخذ أكثر عنفا وأشد ضراوة حتى لقد كان يبيح ما لا يستباح عادة ٠

الخلاف بين العلويين والأمويين كان خلافا سياسيا واذا به ينتهى لكى يصبح خلافا دمويا رهيبا تهدر فيه كل القيم والأقدار ، والخلاف بعد ذلك بين الأمويين والعباسيين ثم بين فرق مختلفة من العباسيين أنفسهم ٠٠٠ وهكذا ٠٠ أخذ نفس تلك الصورة الدموية الرهيبة ٠

وحتى فى نطاق الخلاف الفكرى فما كان أيسر على هـــذه الفرقة الفكرية أن تفتى « بتكفير » فرقة فكرية أخرى لأنها تختلف معهـــا فى

نشر هذا المقال فى الاهرام بتاريخ ١٩٧٦/٤/١٤ فى بداية نشأة المنابر وبعد أن أعلن عن انضمامى الى التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ٠

الرأى ، بل أن الأمر كان يصل أحيانا الى حد أن يبيح هؤلاء دم أولئـــك لأنهم يختلفون معهم فى الرأى حول قضية فكرية تبدو لهم أساسية ٠

وكان الذى يمسك بالسلطة فى يده يبدو دائما على صواب ، حتى اذا زالت عنه الســـلطة لسبب من أسباب زوالها اذا به لا ينسب اليه ــ فى الأغلب الأعم ــ الا الخطأ والافتراء ٠

والذى لا شك فيه أن روح الاســـلام السمحة والتى تمثلت فى سنية الزاهرة الأولى لا تقر ذلك اللدد فى الخلاف حول الرأى والوصول به الى ذلك المدى من الخصومة التى لا تعرف هوادة ولا رحمة ، واعتقادى أن تلك الظاهرة التى تمكنت من حياتنا السياسية والفكرية فى العالم العربى على مدى قرون طويلة هى ظاهرة جاهلية غير حضارية ترتبط ارتباطا وثيقا بالأوضاع القبلية التى كانت ومازالت ســـائدة فى وطننا العربى وبنظرة الانســـان للانسان وعدم عمق الايمان بحرية الفرد وحقه فى التعبير عن رأيه ٠

وما أظن أن المجتمع العربى فى ذلك بدع وحده وانما أتصور أن ســـائر المجتمعات الانسانية مرت بمثل هـــذه المرحلة ، والمجتمع الأوربى قبل عصر النهضة ومرحلة التنوير بل والى حين قيام الثورة الفرنسية عانى من هذه الظاهرة الشىء الكثير ٠

ولكن الشىء الخطير ان هـــذه الظاهرة استطال عمرها عندنا الى أكثر مما ينبغى له ٠ ومن موقع لا يمكن أن يتهم بالاقليمية أستطيع أن أقول ان مصر وهى جزء لا يتجزأ من الوطن العربى كان الخلاف فى الرأى فيها ــ وأن أفسد للود قضايا كثيرة ــ الا أنه لم يكن أبدا سببا فى مثل تلك التصفيات الدموية التى شاهدناها وسمعنا عنها وتألمنا لهـــا فى بعض الأجزاء من وطننا الكبير ٠

أقول أن مصر برأت من هـــذا الداء الى حد ما وان لم تبرأ منه الى المدى الذى يتفق مع حضارتها العميقة الجذور ، ومصر مقبلة فى

أيامها هـذه على تجربة يرجى معها أن يتأكد ان الخلاف فى الرأى — حقيقة وفعلا — لن يفسد قضايا الود والتفاهم بين المختلفين ، ولعله مما يقوى هـذا الرجاء أن الخلاف فى الرأى لن يصل الى أساسيات ليست محـل انكار من أحـد ، تلك الأساسيات التى تتمثل فى المحافظة على الوحدة الوطنية وعلى حتمية الحل الاشتراكى وعلى السلام الاجتماعى •

ولكن الخلاف متصور بعد هذه الاساسيات ، متصور فى الفكر ومقصور فى التطبيق •

والسؤال الآن هو كيف نضمن لتلك التجربة — تجربة التنظيمات المتعددة داخل اطار التحالف — أن تنجح وأن تؤتى ثمارها وأن تؤدى الى تعميق الممارسة الديمقراطية •

ولعل أول عامل يؤدى الى نجاح التجربة — فى تقديرى — أن يأخذها الجميع مأخذ الجد لا مأخذ المناورة ، وهـذا يعنى أن نكون جميعا متفقين اتفاقا حقيقيا على مراعاة المسلمات الثلاثة المشار اليها وأن نكون متفقين على ترك الحرية كاملة فيها بعد ذلك لكل التنظيمات التى قامت فى اطار التحالف •

وأهم مظاهر تلك الحرية يتعلق بأمرين :

أولهما يتصل بمرحلة انشاء وتكوين واقامة التنظيم •

وثانيهما يتصل بمرحلة تعبير التنظيم عن أفكاره ودعوته لبرنامجه واتصاله بالجماهير •

وفى مرحلة الانشاء والتكوين لابد أن يحس مؤسسو التنظيم أنهم قادرون على الحركة آمنون من كل محاولة للتشويه ولابد أن يتاح لهم أن يتصلوا بمن يظنون أنهم أقرب الى فكرهم ولو فى خطوطه العريضة ذلك أن التنظيمات التى تقام اليوم هى أقرب الى الجبهات السياسـية التى تجمع بينها أهداف عامة مشـتركة منها الى الأحزاب التى تقوم على ايديولوجية واحـدة محددة الاطار والأسـاس الفلسفى •

ولا ضرب لذلك مثلا بالتنظيم الوطنى التقديمى الوحدوى فهذا تنظيم يستطيع أن يضم قطاعات عريضة تنتمى الى منابع أيديولوجية مختلفة بل قد يكون بعضها شديد الاختلاف مع الآخر ومع ذلك يجمع بينهم أنهم يلتقون على رفض أمور معينة وعلى الاعتقاد بأمور معينة ويتمثل ذلك كله فى مجموعة أفكار وفى برنامج عمل وطرح هذا وذاك على جماهير الناس لدعوتهم اليه •

وتأتى بعد ذلك المرحلة الثانية وهى مرحلة تعبير التنظيم عن أفكاره ودعوته لبرنامجه واتصاله بالجماهير • ولا شك أن هذه المرحلة تعتمد اعتمادا كبيرا على قدرة مؤسسى التنظيم على الحركة من ناحية وعلى مدى قابلية الناس لافكارهم وبرنامجهم بل وأشخاصهم من ناحية أخرى •

وهنا ولا بد وأن خطر فى الذهن السؤال عن موقف الصحافة وأجهزة الاعلام ، والأصل أن الصحافة مملوكة للاتحاد الاشتراكى أى للاطار أو الوعاء الذى يضم التنظيمات الثلاثة وهنا يتعين أن تلتزم الصحافة موقفا أمينا يعطى لكل من هذه التنظيمات ــ مادامت ملتزمة بفلسفة التحالف ــ الحق الكامل فى التعبير عن نفسها وفى الدعوة الى أفكارها وبرامجها •

كذلك فان أجهزة الاعلام فى الدولة لابد وان تخصص لكل تنظيم من هذه التنظيمات الثلاثة وقتا معينا فى الاسبوع يملؤه التنظيم بمن يختاره من مؤسسيه أو من سائر أعضائه •

والمسألة تبدو دقيقة وتحتاج الى ميزان عادل خاصة اذا أخذنا فى اعتبارنا أن أحد التنظيمات يقف على قمته رئيس مجلس الوزراء نفسه مما يخشى معه أن تنحاز أجهزة السلطة الى ذلك التنظيم فيختل التوازن العادل بينها ، والحقيقة أن هذه المسألة والتزام السلطة وأجهزة الاعلام جانب الحيدة بين التنظيمات الثلاثة سيكون هو المحك الذى يتوقف عليه نجاح التجربة واثباتها لثمارها وتأكيد الممارسة الديمقراطية •

ولا أستطيع أن أنكر أنى سعدت سعادة غامرة وأنا أقرأ ذلك الحوار الذى بدأه الكاتب الكبير الصديق نجيب محفوظ ثم رد عليه السـيد رئيس مجلس الوزراء ومقرر تنظيم مصر العربى الاشتراكى فان ذلك الحوار الموضوعى الهادىء هو صورة من صور النضج الحضارى مما ينبىء عن أننا نبدأ بداية سليمة تبشر بخير كثير •

والحقيقة أن هـذا كله يتوقف على مدى ايماننا ايمانا حقيقيا بأن اختلاف الرأى هو ظاهرة حضارية صحية ، وأن اختلاف الرأى يجب أن لا يفسد للود قضـية •

وأنا واثق ثقة لا حدود لهـا ان شـعبنا قادر على الاختيار وأن اختياره ــ عندما يكون حرا ــ هو الاختيار الصائب والسليم وهو على أى حال الاختيار الذى لابد من النزول عند ارادته •

هدم الدين أو الكفر بالوطنية

ليس مجرد خلاف في الرأى

ما كنت أظن ولا أنتظر ولا ينتظر الكثير مثلى أن الدكتور يحيى الجمل يلقى بنفسه هكذا وبسهولة فى التيار الشـيوعى ، ويدفع قاربه للسير فيه ، ويجدف بمجدافه ، وتجوز عليـه خدعة الألفاظ « التنظيم الوطنى الوحدوى التقدمى » وهو لا يخفى عليـه كما أظن ما وراء هذا الاسم ، ومدى تعبيره أو انطباقه على المضمون • فما كان الشيوعيون يؤمنون فى يوم من الأيام بوطنية ، ولا يقيمون وزنا للشعور بها لأنهـا عندهم ضد مبدئهم القائم على الأممية التى تربطها العقيدة الشيوعية فى جميع أنحاء العـالم حتى وجدنا الشـيوعى المصرى يضحى بوطنه ومصالحه فى سبيل ارضاء شـعور الشيوعى الاسرائيلى بل، وفى سبيل ارضاء زعماء الشيوعية فى روسيا •

فالشـعور بالوطن والاخلاص له ، لا وجود له عنـد الشيوعية والشيوعيين لاسـيما اذا تعارضت مصلحته مع الشيوعية ومبادئها • فالوحدة ــ بمعنى وحدة الشعب على اختلاف طبقاته أو وحدة الأمة كالأمة العربية التى تجمعها قومية واحدة ، لا وجود لها فى المبادىء الشيوعية اذ لا وحـدة عندهم يعترف بها الا وحـدة الشيوعيين فى جميع الأمم • ــ فالشيوعى الاسرائيلى مثلا مفضل عند الشيوعى المصرى على أخيه المصرى أو العربى غير الشيوعى واذا قامت حكومة شيوعية فى اسرائيل وهى تحتل أرضنا وتقهر شـعبنا وتشتته زال كل خلاف بينها وبين الشـيوعى المصرى أو العـربى وأصبحت هـذه الحكومة الشـيوعية

نشر هذا المقال لفضيلة الشيخ عبد المنعم النمر وزير الاوقاف الاسبق فى الاهرام بتاريخ ١٩/٤/٧٦ ردا على مقالى السابق بعنوان ... حتى لا يفسد الخلاف فى الرأى قضية الود ..

الاسرائيلية أفضل لدى الشيوعيين العرب من الحكومات العربية الاسلامية غير الشيوعية ــ وهــذه هى ألف باء الشيوعية لا قيمة عندها للوطن أو الوطنية أو الوحدة القومية فكيف ــ اذن سمى الشيوعيون تنظيمهم بهذا الاسم « الوطنى الوحدوى » ؟

والجواب سهل تستمده من التعاليم أو من التكتيك الذى وضعه ممثلوا الشيوعية لتلاميذهم فى كل مكان وهى «أن يلبسوا لكل حالة لباسها» حتى لا يصادموا الشــعوب وحبها للوطن وتعقلها بالوحدة أو بالقومية ــ وحتى يستطيعوا خداعها وجرها الى صفوفهم ليتمكنوا أو كما يقول المثل الشعبى « يتمسكن حتى يتمكن » وتاريخهم فى روســيا نفسها أبان قيام الحكومة الشــيوعية الأولى أقوى دليــل على هــذه الحقيقة أو على هــذا الخداع •

أما التقدمى « والتقدم » ــ فقد بنيت من قبــل أن الشيوعيين يقصدون به حسب تعاليم ماركس ولينين معنى آخر مغايرا كل المغايرة لــا نفهمه نحن ، وتفهمه كل الشــعوب غير الشيوعية ، فنحن نعنى به النهضة والتقدم نحو الرقى فى الانتاج وفى وســائل الحياة عموما وهو أملنا وأمل كل الشــعوب ، لكن الشيوعيين يقصدون به التقدم بخطوات نحو الهدف الأعلى لهم وهو الشيوعية القائمة على الصراع والصدام واجتثاث الدين أيا كان من الجذور •

فالشيوعيين فى هذا التنظيم يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، ويختارون للتنظيم أسما براقا لخداع الشــعب وانتزاع اعجابه والتفافه حولهم لأنه محب للوطنية ، محب للوحدة محب للتقدم والنهضة ــ ولقد كذب الشيوعيون فيما يدعون من وطنية أو من وحدة أو من رقى لشوبهم ونهضة ــ لأنهم لا يقرون بنهضة الا اذا كانت فى ظل الشيوعية ونموها ولا بوطن الا اذا كان تابعا لروسا ولا بوحدة الا فى ظل الشيوعيــة

والسؤال الذى يحيرنى الاجابة عنه هو ، هل غابت مثل هــذه

الحقائق أو المعلومات الأولية عن رجل فى ثقافة الدكتور يحيى الجمل ؟
لا أصدق ذلك ولا أسىء الظن أبدا بعلمه وثقافته ..

فماذا يبقى اذن الا الفرض الآخر ؟ وهو أنه يعلم ذلك تمام العلم وانه أقبل على تأييده واحتضانه مع سبق اصرار وبوعى وادراك يليقان بعلمه — وحينئذ يكون الدكتور يحيى الجمل قد ظهر بمظهر غير الذى كنا نظنه فيه وأصبح بمقتضى وضعه الجديد واحدا من اثنين :

(أ) أما انه رجل شيوعى اعتقد من قديم ما يعتقده الشيوعيون من كفر بالوطن والوطنية والوحدة والقومية ومن تشبث بالتقدم نحو تحقيق الشيوعية فى بلدة واجتثاث الدين من الجذور كما يعبر الشيوعيون المعلمون الحقيقة وحين جاءت له فرصة ظن وراءها أملا انتهزها وظهر على حقيقته

وتحت هذا العنوان عرض التاريخ الاسلامى كله الا فقرة قصيرة فى أوله على أنه كان تاريخا دمويا رهيبا من أجل الاختلاف فى الرأى — تنظيمه وعن مبادئه الدموية — فاختار لذلك أسلوب اللف عنوانا يردده لخلافات فرعية هامشية مع المختلفين معه « اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية » .

واجتهد فى أن يخفى هذا عنا جميعا حتى نجح تماما فى اخفاء هذه وهذا شىء غريب أو مهارة يحسد عليها .

(ب) وأما انه رجل لا يعتقد ما يعتقده الشيوعيون ولكنه رأى — هذا العمل أو هذا الموقف معروف وطنيا ودينيا — واذا كان هذا يدور فى فلك روسيا يتلقى تعليماته من موسكو ؟؟ والحكم على مثل أغراضهم فى القضاء على الاسلام فى بلده وتحويل مصر الى بلد مستعمر الحكم هو نتيجة حتمية على كل من يساعد ظالما جاحدا بالله وبالوطن ، فاننى لازلت اعيذ الدكتور يحيى الجمل وأمثاله من هذه النتيجة أو من لأمر ما — أن يضع نفسه بجهده وعلمه وقلمه فى خدمتهم ليصلوا الى يدور فى فلك روسيا يتلقى تعليماته من موسكو ؟؟ والحكم على تعليماته

تلك • ولكنى ماذا أقول ؟ أقول له ما قاله شاعرنا :

أن كنت لا تدرى فالمصيبة أعظم أو ماذا ؟

والدكتور يحيى الجمل محام زاول المحاماة مدة ، ثم قام بالتدريس فى الخارج مدة ولذلك لم يصعب عليه أبدا أن يكون ماهرا فى الدفاع عن وان هذا كان أثرا من آثار العقلية الجاهلية وظاهرة غير حضارية مرتبطة بعدم عمق الايمان بحرية الفرد وحقه فى التعبير عن رأيه ••• الخ •

ان اختيار عرض هذا الجانب الصراعى من التاريخ الاسلامى نلمس منه هدفا يرمى اليه المحامى الماهر فى الدفاع والتماس الاعذار لما هو معروف عن الشيوعية واعتناقها لمبدأ الصراع الدموى بين الطبقات وكأنه يريد أن يقول « مفيش حد أحسن من حد » • وان كان قد عقب عليها وتلك مهارة المحامى •؟

لكن يبقى أن نقول للدكتور : ان هذا الصراع الذى ثار بين المسلمين انما كان من أجل الحكم وكان صراعا سياسيا لا طبقيا ولا يقره الاسلام وبعيد عنه ويبقى الاسلام بجوهره الصافى الذى يشع روح الاخوة والمصالحة بين المسلمين ويقرر فى صراحة تامة « اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار •• قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما شأن المقتول ؟ قال : كان حريصا على قتل صاحبه » ويقول الله « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم » من آذى ذميا أو معاهدا فأنا خصيمه يوم القيامة ومن كنت خصيمه خصمته « أى غلبته وقهرته » • وفى دية القتل الخطأ يسوى بين المسلم وغير المسلم المعاهد فيقول الله تعالى « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله « ثم يقول » وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة •• الآية « فسوى بين المسلم وغير المسلم الذى يكون من قوم لبسوا محاربين لنا » •

هذا هو الاسلام وهذه هى مبادئه وتوجيهاته القائمة على الاخوة والمحبة فهل تسمح يا دكتور يحيى وتحدثنا عن الشيوعية التى تنصرها أو تناصرها ورأيهافىضرورة الثورة الدموية من طبقةمنالامة على طبقاتها الأخرى ورفضها الحاسم لكل مصالحة أو اصلاح يتم عن الطريقالسلمى أو التفاهم بين طبقات الأمة ؟

مبادىء مجتمعنا والشيوعية :

ان التنظيم اليسارى الشيوعى قد خرج عن المبادىء الأساسية لمجتمعنا فمبدأ التحالف بين قوى الشعب : لا تقره الشيوعية لأنها تقوم على مبدأ الصراع الدموى بين الطبقات وهذا مبدأ أصيل فى الشيوعية كما عرفناه ولكن الشيوعيين بأسلوب المناورة والمداورة والخداع الذى وضعه لهم معلموهم يسايرون أحيانا وظاهـرا فقط الوضع السـائد فى الأمة ويركبون الموجة للوصول الى غايتهم حين تحين فرصتهم .

وهم انطلاقا من هذا المبدأ عندهم أيضا لا يقرون الوحدة الوطنية بين أهل الأديان لأنهم لا يعترفون بها نفسها بل يطاردون أهلها .

وحتمية الحل الاشتراكى : لا يرضيهم لأنه يقوم على أساس وسط لا تقبله الشـيوعية فهى لا تقر الملكية الفردية الموجـودة عنـدنا ولا الرأسمالية الوطنية ولا ترضى بالأساليب التى تتخذها الدولة فى هـذا السبيل اللهم الا مسـايرة للوضع القـائم حتى تحين الفرصـة لهـم للانقضاض عليه .

ثم أين السلام الاجتماعى فى الشيوعية ذلك السلام الذى يقوم على التحالف بين طبقات الأمة وعـدم تحريض طبقة على طبقة وعـدم التعرض لشعور الجماهير والاعتداء على دينها وعقيدتها ؟

هل يكون هناك سلام اجتماعى فى ظل مبادىء تقوم على القهر والصراع الدموى واثارة طبقة على الطبقات الأخرى للأمة ؟ هل يكون

هناك سلام اجتماعى فى ظل مبادىء تقوم على حــرب الأديان نفــوس معتنقيها حتى يجعلوها من العصــور ويقضــوا على الايمــان بالله فى النفوس ؟ ••

لقد عمل الذين أخذوا الاشتراكية عنوانا لاصلاحاتهم عندنا على أن يرفضوا كل ما جاءت به الشيوعية لأنه ضد السلام الاجتماعى حتى قال الرئيس الراحل عبد الناصر « عرض على أن أكون شيوعيا فرفضت لأسباب ثلاثة : أولها أن الشيوعية ضد الدين وأنها تريد دكتاتوريةالطبقة وثانيها : لأنها تفرض الهدم بالقوة ــ وثالثها : وليس أقلها شأنا أننى أومن بالقومية وهى ترفضها » •

فكيف اذن ــ يتحقق السلام الاجتماعى مع وجــود تنظيم يدعو للشيوعية والشيوعيين هم مؤسسوه وطلائعه ؟ •

ولا أدرى كيف يقبل رجل اذا كان وطنيا ومثقفا ومخلصــا لدينه ووطنه وشعبه أن ينطوى تحت لواء هــذا التنظيم ويشــارك فى نموه ونشاطه ؟ لا أدرى وهذه هى مبادئه وتطلعاته عرفناها ونزداد معرفة بهــا كل يوم مهما غلفوها بأوراق السلوفان أو حتى بأوراق « اللحمة » •

هل خلاف الشيوعية مع الاسلام لا يفسد للود قضية :

ومع أن الاسلام قد شق طريقه لأهدافه فى اطار الاخوة والمحبة لا فى بحار الدماء وغبار الهدم كالشيوعية الا أنه يقف موقفا حاسما من كل انسان يحاول الاعتداء عليه وطمس معالمه ويستهتر بمبادئه وتعاليمه ويعمل بطريقة أو بأخرى للنيل منه لأن الاسلام يفرض على أتبــاعه المؤمنين به أن يتصدوا لمثل هذه المحاولات ولا يتسامحوا معها لأنهــا محاولات تهدم وتنقض الدين • وتتنكر له تنكرا كليا ولا يعتبرها ضمن الخلافات فى الرأى التى لا تفسد للود قضية لانها تفسد أصل الود وتهدمه ولأن الخلاف المقبول فى الرأى هو الذى يتم داخل دائرة الايمان وينحصر

فى هذه الحالة فى كيفية فهم النص فهما لا يتعارض مع النصوص والمبادىء الاخـــرى .

فهل تريد يادكتور يحيى أن تقول ان خلاف التنظيم الشيوعى — المسمى « التنظيم الوحدوى الوطنى التقدمى » مع معارضيه انما هو خلاف من النوع الثانى الذى لا يفسد للود قضية ؟

كيف : ومبادىء التنظيم شـــيوعية ماركســية ومؤسسوه الأول شيوعيون ماركسيون ؟ وقد بدأوا يظهـــرون على الســطح فى أماكنهم ويعملون والشعب يعرفهم سابقا من نشاطهم ومن دعوتهم واكنهم كانوا يحذرون بطش القانون فيتسترون ما أمكنهم التستر وقد برزوا بأعناقهم الآن وبدأوا ينظمون أنفسهم علنا ويستعدون للنشاط علنا كذلك .

فكيف يمكن أن يقال أن خلافنا مع هذا التنظيم ومبادئه انما هو خلاف فرعى لايفسد للود قضية انه خلاف مع الاسلام يقوم علىمبادىء أما مبادىء الاسلام أو مبادىء الشـــيوعية خـــلاف بين المؤمنين بالله والمنكرين له بين المؤمنين بالرسل والمنـــكرين لهم بين المؤمنين بالاخـــوة الاسلامية مع المسلمين والاخوة العالمية مع البشر جميعهم وبين اهدار كل الصلات .

حـــرية الرأى :

ومع ذلك تتعلقون بحرية الرأى : نعم والاسلام يقدر ويقـــدس حرية الرأى لكن رأى الاسلام لا يجبر أحد على اعتناقه بل يترك لكل انسان حريته لا يسمح لأحد أن يحاربه أو يستنقصه ويستهجن مبادئه ويعمل على قبرها واهانتها . الناس أحرار فى أن يؤمنوا به أو ألا يؤمنوا ولكن مع عدم الاعتداء عليه — وهو لا يعتدى على حرياتهم ويجبرهم عليه وعلى الآخرين كذلك ألا يعتدوا عليه ولا على مبادئه بالقـــول أو بالعمل ، لاسيما اذا كانوا ولو اســما وظاهرا .. من أتبـــاعه . وعلى المؤمنين به أن يحموه من هذا التهجم أو بالأصح أن يحســوا كرامتهم

وأمنهم وكيانهم وشخصيتهم من التهجم • فدين الانسان هو كل شيء فيه ومن تهاون فى دينه هان عليه كل شيء •

● أتريد يا دكتور أنت ومن معك فى هذا التنظيم أن تعتدوا على دين البلد وعلى استقلاله وتقولوا حرية رأى ؟ شيء عجيب •

● وهل تسمح الشيوعية بنقد أي مبدأ من مبادئها أو تعليم يصدره زعيم من زعمائها على أرضها ؟

● ألم يتهموا بعض الزعماء والكبار فيهم بالارتداد عن الشيوعية لمجرد أنهم توانوا فى تنفيذ تعليماتهم وأعدموهم ، أو نفوهم الى مجاهل سيبيريا ليموتوا فيها موتا بطيئا فكيف تسمحون لأنفسكم هنا بالانقضاض على ديننا ومبادئنا ؟

● انكم تعتنقون مبادىء الشيوعية حسنا •• هل تقبلون أن يطبق عليكم مبادئها المطبقة فى بلدها ازاء حرية الرأى •

ويطبق عليكم كذلك الجـزاء الذى ينزلون بكل من هاجمها • أو تنكر لها أو توانى فى العمل من أجلها فى مجتمعها •

● وهل تغيب عنا تحركات الشيوعيين ؟ هل يغيب عنا أن ولاءهـم للشيوعية لا لدين البـلاد ؟ وأن ولاءهم لروسـيا لا لوطنهم ؟ وماضى الشيوعيين وتبعيتهم لروسيا فى كل البـلاد العـربية وغير العربية أمر معروف وظاهر ظهور الشمس ؟ ولعل أكبر وأحدث دليل هو موقف رئيس التنظيم السيد خالد محيى الدين من الغاء المعـاهدة وهو اجراء رسمى وشعبى وطنى اتخذ حفاظا على كرامة الوطن وتخليصا له من التبعية والخنق الروسى • فيأبى ممثل الشيوعية والتنظيم الشيوعى « الا أن يبرهن على تنكره لوطنه ، وولائه لروسيا من خلال صحيفة شـيوعية عراقية ؟؟ ويقول انه مجرد خلاف فى الرأى ويسانده الدكتـور يحيى الجمل وآخرون ؟ ومن العجب أن نجد الدكتور يحيى يناشد أو يطالب

بأن تكون للتنظيم الشيوعى مساحة تعادل التنظيمات الأخرى فى أجهزة الاعلام . فى الوقت الذى طلع علينا فيه الدكتور يحيى الجمل بمقاله فى الجانب الاكبر من صفحة الرأى — واحتل الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله الجانب الآخر ؟ ويأخذ خالد محيى الدين نصف صفحة فى جريدة أخرى فى اليوم نفسه يتحدثون عن التنظيم المسمى « الوطنى التقدمى والوحدوى » — ان الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله والشيوعيين مثله يحسون أن الشعب شعب مؤمن حفظ الله عليه دينه» ولم يظهر فى الريف من الشيوعية شىء من تلك التى ظهرت كالبثور فى جسم بعض المدن ، فيدعو الى ما سماه التمثيل النسبى لأنهم يعلمـــون أن الشعب المؤمن بدينه معه ولن يعطوا أصواتهم للشيوعيين ولن يفوزوا بشىء — لذلك طلع علينا بدعوة الى التمثيل النسبى ليستطيع أن يظفر من خلال الأصوات الشيوعية فى كل الدولة ببعض النواب : انه ليس لى من كلمة بعدذلك أقولها للذين انخدعوا ببريق الألفاظ وأقولها لشعبنا المتدين الا قول الحق تبارك وتعالى :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصررون » .

سامحك الله ياشيخنا النمر

سامحك الله ياسيدى وغفر لك وهدانا واياك الى ما يرضيه والى ما يصلح حالنا وحال أمتنا .

وهل تسمح لى ياسيدى بعد ذلك بمناقشة موضوعية هادئة ــ غير هادرة ولا مرهبة ــ أحتكم فيها الى دينك وضميرك أولا ثم أحتكم فيها الى وعى شعبنا وعقله ثانيا .

واذا أذنت فاننى سأقسم حديثى لك الى قسمين :

أما أولهما فيتعلق بما نسبته الى التنظيم الوطنى التقدمى الوحدوى.
وأما ثانيهما فيتعلق بما نسبته الى شخصيا .

وقد بدأت ياسيدى من مقولة أساسية افترضت صحتها الكاملة التى لا تقبل المناقشة ثم بنيت عليها أحكامك القاطعة كلها . أما تلك المقولة فهى أن التنظيم « الوطنى التقدمى الوحدوى » هو تنظيم شيوعى وأن كل من انضم اليه فهو من الشيوعيين .

وهذه المقولة التى قطع بها الشيخ النمر يبدو أنها غابت غيابا كاملا عن لجنة العمل السياسى أولا ثم عن اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى وهيئته البرلمانية ثانيا عندما أقروا جميعا قيام هذا التنظيم ، وما أظن ولا أتصور أنهم يسمحون بقيام تنظيم شيوعى يصادق الشيوعيين الاسرائيليين ويعادى العرب المسلمين ، وانما هم أقروا قيام تنظيم يرتبط بفلسفة التحالف ويؤمن بها وله بعد ذلك اجتهادات خاصة به . ذلك لأنهم يؤمنون بأن للعقل البشرى دورا يؤديه وأن الغاء هذا الدور هو دعوة ضد الاسلام وضد العلم وضد التقدم .

نشر هذا المقال فى الاهرام بتاريخ ١٩٧٦/٤/٢٢ وكان آخر مقال نشر لى فى الاهرام .

أقرت لجنــة العمل السياسى واللجنــة المركزية والهيئة البرلمانية قيام ذلك التنظيم وأقرت برنامجه ووافقت على مقرره ، ولابد وأن هذه الجهات جميعا كانت تعرف ماذا تفعل ، ولكن الدكتور النمر كشف فى مقاله الأخير كيف وقعوا جميعا فى الغفلة وكيف انطلت عليهم الخدعة فأقاموا من حيث لا يدرون ــ وتلك مصيبة كبرى ــ تنظيما شيوعيا خائنا لوطنه مارقا عن دينه صديقا لاسرائيل ••

الا يحسن بنا أن نتروى قبل أن نصدر تلك الأحكام القاطعة ولا نلقى بالحمم وشواظ النار هكذا فى غير اناة وبغير تحقيق •

ولعل الأســتاذ النمر قد استمع الى خطاب الرئيس محمد أنور الســادات الذى تحدث فيه ــ أمام مجلس الشعب ــ عن التنظيمات الثلاثة ووصفه لهــذا التنظيم بأنه يضم فئــات واتجاهات اليســار المختلفة • وهــذا يعنى بوضوح وبفهم عميق أن اليسار ليس فئة واحدة ولا اتجاها واحــدا وانما هو اتجاهات عديدة تلتقى على أمور وتختلف على أمور •

ولكن شيخنا الفاضل ــ سامحه اللــه ــ لا يرى فى ذلك التجمع الوطنى التقــدمى الوحدوى الا كل شــيوعى مارق من رحمــة اللــه والعياذ باللــه •

وصدقنى ياسيدى اذا قلت لك مخلصا أن هذا التجمع ليس فيــه من قدامى الشيوعيين الا قلة قليلة تؤمن بوطنها قبل أى شىء آخر وأن الكثرة الغالبة من أعضائه لا صلة لها بالشيوعية من قريب أو من بعيد وأنها ما كانت تقبل الانضــمام الا وهى تعلم جيــدا أن ذلك التنظيم لا يضم الا كل وطنى تقدمى وحدوى مخلص ، ولك ياسيدى أن تصدق ذلك ولك أن لا تصدقه ، ولكن عليك أن تتحقق قبل أن تلقى بالاتهام •

هــذا عن التنظيم •

أما عنى أنا شخصيا فيبدو أن فجيعتك فى كانت كبيرة وغير متوقعة ، وهــذا يوحى الى بأنك كنت تحسن فى ظنا قد خاب •

وفى كل ماقلته عنى ياسيدى اتفق معك على شيء واحـــد واختلف معك بعده ــ اذا أذنت لى ــ فى كل شيء ، أما ما اتفق معك عليه فهو انى أقبلت على ذلك التنظيم عن وعى كامل بما أفعل بل وبعد تفكير طويل • والى هنا نحن متفقان •

ولكنك تقول بعد ذلك عنى اننى وقد أقدمت على تأييد ذلك التنظيم فاننى لا أخرج عن أن أكون واحدا من اثنين : أما اننى رجل شيوعى استطعت أن أخفى تلك الحقيقة زمنا ثم جاءت لى فرصة ظننت وراءها أملا فظهرت على حقيقتى وأما اننى رجل لا يعتقد ما يعتقده الشيوعيون ولكننى وضعت نفسى فى خدمتهم لكى أساعدهم على هدم الاســـلام وتحويل مصر الى بلد مستعمر يدور فى فلك روسيا ويتلقى تعليماته من موسكو • وأشـــهد اللـــه الحق بل وأشـــهدك ياسيدى انى لست واحدا من هذين وأكاد أجزم أنك بحكم ذكائك وما افترضه من أنك قرأت لى تدرك ذلك بينك وبين نفسك تمام الادراك •

ولنحتكم ياسيدى الى ما قلته وكتبته ســـواء فى الماضى أو فى الحاضر الذى لم تمض عليه أيام •

ولكنى أحب قبل ذلك أن أقو ول لك شـــيئا عنى شخصيا وعن طريقة مسلكى فى الحيـــاة ، أنا ياسيدى رجل لا أفعل شـــيئا فى الليل أخشاه فى النهـــار ، أنا رجل ظاهرى هو باطنى بغير خلاف ، ولو كنت مؤمنا بالشيوعية ما أخفيت ذلك ولكننى ياسيدى وعلى مدى ربع قرن من الزمان كنت وما زلت خصما علميا للعقيدة الشيوعية ، والمثقفون فى الوطن العربى كله من الخليج الى المحيط يعرفون ذلك عنى ، يعرفون من خلال مقالاتى وكتبى وأحاديثى فى الاذاعة انى رجل أومن بالقومية العربية وأومن بالاشتراكية ، وأومن قبـــل ذلك كله وبعـــد ذلك كله بديانات الســـماء

وخاتمها وأكملها الاســلام الحنيف الذى أرجو أن ألقى اللــه عليه •

وتعال ياســيدى نحتكم الى ما كتبت وهو الدليل الوحيد ضدى أو معى •

فى عام ١٩٦٥ كتبت كتابا عن « الاشتراكية العربية » انتقدت فيه النظرية الماركسية نقــدا علميا ، وبعد ذلك قيل على أعلى المستويات فى بلادنا انه لا يوجد شىء اســمه الاشتراكية العربية وانما هو تطبيق عربى للاشتراكية وعدل كثيرون عن استعمال تعبير « الاشتراكية العربية » ولكننى فى عام ١٩٦٨ أعدت طبع كتابى موسعا وصممت على أن يكون عنوانه « الاشتراكية العربية » وناقشت سبب اصرارى على ذلك العنوان فى صــفحات طوال •

وعنــدما عرضت النظرية الماركسية فى ذلك الكتاب عرضتها عرضا علميا موضوعيا ثم انتقلت بعد ذلك الى تقويمها وناقشت أساسها الفلسفى وأظهرت فســاده فلســفيا وعلميا ثم قلت « وقد كان يكفى فى تقييم الماركسية من الناحية النظرية الفلســفية أن ينهار الأساس المــادى الذى تقوم عليــه أو أن يثبت على الأقل انه ليس ذلك الأســاس الصلب الذى لا يهتز كما يتصور الماركسيون •

وقد كان يكفى فى تقييم الماركسية نظريا أن نقول ذلك الذى قلناه ولكنا نود أن نتابع بقية حلقات النظرية لنناقشها مناقشة موضوعية » وذلك هو الذى فعلته فى صــفحات طوال لا أريد أن أعيدها هنا عليك أو على القراء فهى منشورة ومعروفة •

وعنــدما انتقلت فى كتــابى ذلك الى دراســة « الموقف الفكرى للاشتراكية العربية » ــ ص ١٩٨ وما بعدها ــ قلت « ••• وهذا التحليل الذى نعتقد بسلامته يؤدى بالضرورة الى أن نقول ان من الخصائص الاســاسية للاشتراكية العربية أنهــا ترى فى الوجود القومى أساسا جوهريا من الأسس التى ينظر بها الى التاريخ الانســانى • هنــاك

اشتراكيات ترفض الوطن وترفض القومية هكذا فى الكتب وفى النظريات على خلاف كل ما أثبته ويثبته الواقع حتى لـدى المؤمنين بمثل تلـك النظريات . ولكن الاشتراكية العربيـة لا ترفض الوطن ولا أساسه القومى بل هى ترى فى القومية أساسا حقيقيا صلبا من الأسس التى يصح أن ينظر من خلالها الى التاريخ الانسانى عبر مسيرته الطويلة » .

وعندما عرضت لقضية الدين قلت : « ... ان رسالات السـماء فى حقيقتها عقائد شاملة تحيط حياة الانسان كلها وهى أيضا وفى نفس الوقت دعوات للعدل الاجتماعى تفتح الباب واسـعا أمام كل صـور العدل وتغلق الباب تماما أمام كل صور الظلم . والاشتراكية تسعى الى اقرار العدل الاجتماعى ورفع الظلم الاجتماعى بكل صوره . ومن هنا لا تصادم بين الاشتراكية والدين ، وانمـا عكس ذلك هو الصحيح . وسر الخلط فى هـذه القضية ان الماركسية ترفض الدين وتراه مخدرا للشـعوب وتنكر الحقيقة الالهية ونحن لا نقبل هـذا الموقف الماركسى ونرفضه جملة وتفصيلا » .

قلت ذلك وكتبته فى عام ١٩٦٨ فى وقت كان الميل فيه نحو الماركسية قد يحقق مغنما ياشيخنا الفاضل .

وبعد ما يقرب من سـنوات عشر جرت عجلات المطابع بكتاب لى اسمه « الأنظمة السياسية المعاصرة » لم يعلن عنه بعد وقد نزل الى القراء منـذ أيام فقط وفى ذلك الكتاب ناقشت النظرية الماركسية أيضا وناقشت نظام الحكم فى الاتحاد السوفيتى ، ومما قلته فى ذلك الكتاب الذى لم يمض على ظهوره الا أيام معدودات أى بعـد أن كشفت عن حقيقتى وأيدت منبر الشيوعيين فى رأى الدكتور النمر — « والحقيقة انه يرد على النظرية الماركسية فى الدولة — وهى كل جوانبها انتقادات أساسية — فحصر التاريخ الانسـانى كله فى الصراع بين الطبقات وحصر أسباب الصراع كلها فى السبب الاقتصادى دون سواه من نوع التبسيط غير العلمى وأن أدعى أصحابه العلمية » .

هل يعد هـذا كله يصمم الشيخ الفاضل على أننى أخفيت حقيقتى الشيوعية عن الناس وانني أظهرتها أخيرا جريا وراء فرصة أو أمل • وأى فرصة هـذه وأى أمل • ليت سـيدنا الشيخ النمر يدلنى على شيء من ذلك مع انني والحمد لله فى غنى نفسى كامل عن البحث عن مثل هـذه الفرصة أو ذلك الأمل •

وأعود بعد ذلك الى المقال الذى تفضل الاهـرام ونشره لى عن الخلاف فى الرأى ودعونى أن لا يفسد ذلك الخلاف فى الرأى قضية الود •

هل جاء فى ذلك المقال ـــ كما ورد فى مقال الدكتور النمر ـــ دعوة لهدم الدين أو الكفر بالوطنية أو دعوة الى ان الخلاف حول هذه الأمور الجوهرية لا يفسد للود قضـية ؟

كلا ياسـيدى وأقولها لك صريحة اننى خصـم عنيد الى أقصى درجات العناد مع كل من يدعو الى هدم الدين أو الكفر بالوطنية ، كما انى خصم عنيد ضد كل دعاة الرجعية والارهاب الفكرى •

وليتك ياسـيدى تعيد قراءة ذلك المقال ولعلك ياسـيدى ترجع الى أسبوعين أو قرابتهما لتقرأ لى مقالا فى « الأهرام » أيضا بعنوان « تيار يبحث عن منبره » ـــ ٢٥ مارس ١٩٧٦ ـــ حيث قلت فيه « وفى مصر تيار يبحث عن منبره بين هـذه المنابر الثلاثة • فما هو هذا التيار ؟ هـذا التيار هو التيار القومى العربى الذى يؤمن بانتماء الشعب العربى فى مصر الى الأمة العربية انتماء الجزء الى الكل والذى يؤمن بأن القومية فى عصرنا هـذا لا يمكن أن تكون بغير مضمون اشتراكى ديمقراطى •• وقلت فى ذلك المقال أيضا « وأبنـاء هـذا التيار يؤمنون بالاشتراكية طريقا حتميا للتقدم والتنمية والحيلولة دون استغلال الانسان للانسان • ولكن الاشتراكية عندهم ليست قالبا واحدا ثابتا وليست نتاجا ماركسيا خالصا وأنتأثرت بالضرورة بالفكر الماركسى •• والاشتراكية فى الوطن العربى هى بالضرورة اشتراكية عربية بمعنى أنها لابد متأثرة بخصائص هـذه الأمة وبقيمها وبواقعها » •

هــذا ياسيدى هو فكرى وهــذا هو موقفى احتكم فى تقديره وفى تقييمه الى دينك والى ضــميرك واحتكم فيه قبل ذلك وبعد ذلك الى جماهير شــعبنا الواعية •

* * *

وبعد هــذا المقال أغلق أمامى باب الأهرام وأظنه مازال مغلقا الى يومنا هــذا •

ولكن أرجو وأظن أن ذلك وضعا لن يطول باذن اللــه •

واللــه ولى التوفيق •

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ٨٢/٢٥١٦

المطبعة الفنية . القاهرة . ت ٩١١٨٦٢

عبد الناصر
والسد العالى والقومية العربية

- «عبد الناصر والسد العالى والقومية العربية» ليس هذا عنوانا لثلاث مقالات كما يبدو للقارىء، كما أنه ليس عنوانا لموضوعات ثلاث منفصلة عن بعضها يحاول هذا الكتاب معالجتها وانما هو عنوان لمقال واحد يعالج موضوعا واحد.
- كانت معركة السد العالى أولى معارك جمال عبد الناصر ضد الإستعمار الجديد التى أوصلته لقيادة الجماهير العربية كرمز للبطل القومى المنشود ونموذجا يحتذى به فى العالم الثالث.
- وإذا كان مقال «عبد الناصر والسد العالى والقومية العربية» هو أول مجموعة المقالات التى يضمها هذا الكتاب والتى نشرت فى عدد من المجلات والجرائد العربية داخل مصر وخارجها.. فإن هذه المقالات جميعها تدور حول عدد من القضايا السياسية التى تبدو أن الكتاب العرب لم يفرغوا ولن يفرغوا منها فى القريب.
- وصاحب هذه المقالات الدكتور يحى الجمل قبل أن يكون وزيرا وأستاذا جامعيا يعد من طليعة المدافعين عن قضايا الحريات والعاملين من أجل الفكر القومى وقضية الوحدة العربية.




دار المستقبل العربى. القاهرة
١٠ شارع سليمان باشا - روكسى